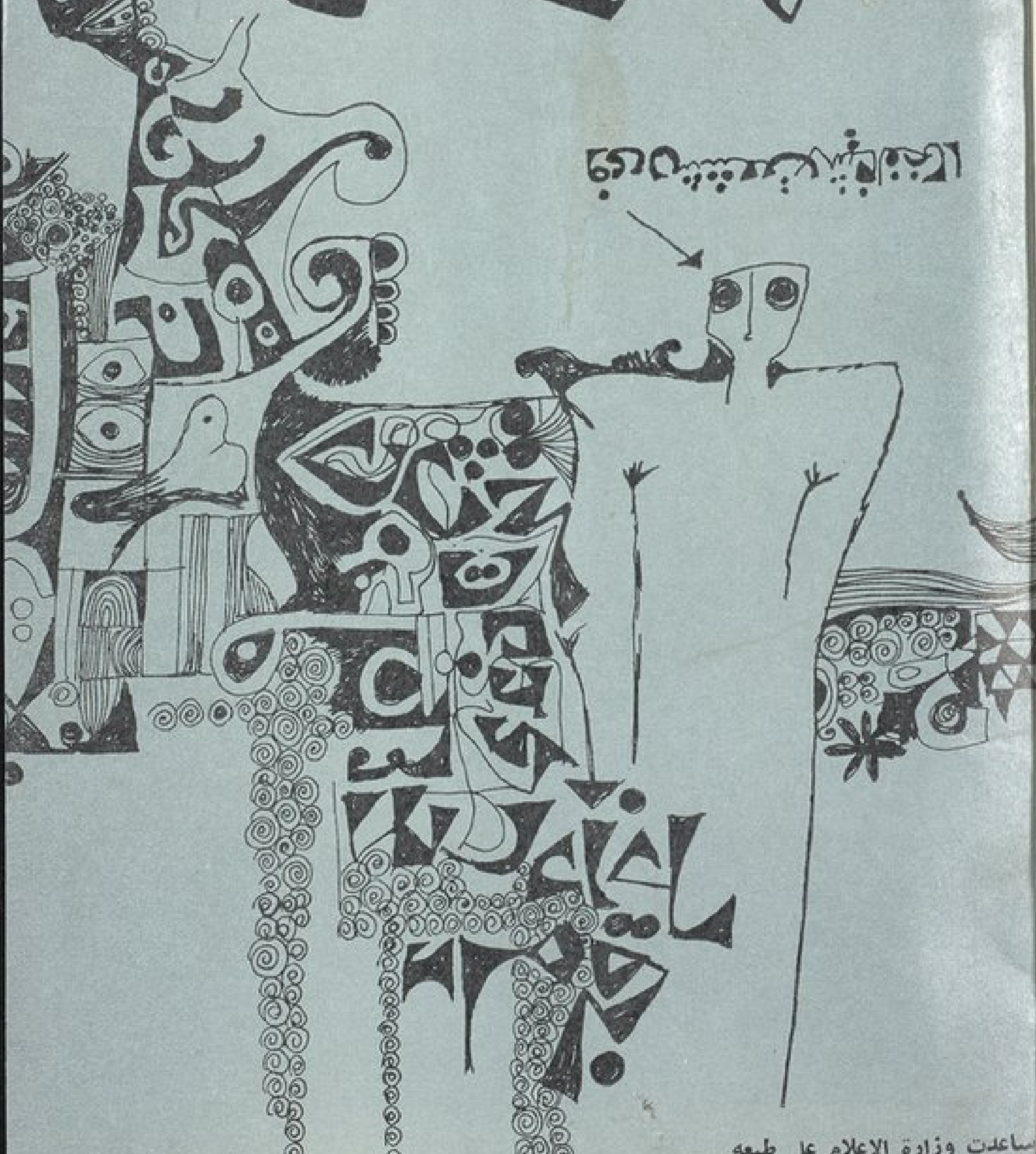
الهمس المذعور



ساعدت وزارة الاعلام على طبعه

عبد الله نيازي

الهمس المذعور

ساعدت على طبعه وزارة الاعلام

مطبعة حداد ـ البصرة ـ العراق

الطبعة الاولى
ايار ١٩٧١

العشب الاحمر

كان شيء ما يحفر موقيه فيحس كما لو انهما كانتا تتمزقان ، فقد كان الدم يترقرق فيهما حتى ليكاد ينبجس ٠٠ كان يشعر بأنحباس مظلم يكتنف اعماقه فيعتصرها بمرارة ، ولكنه كان يغالب ما كان يحطمه فلا يدعه يشوه ملامحه ٠٠ فهو يكره الضعف كأعنف ما يكون الكره ولا يريد ان يبدو امام نفسه هشا تعبث به العواطف ، او انه ما كان يريد ان يسمح لنفسه ان تجد ثغرة تندلق منها عواطفه الحبيسة اندلاق الرصاص الذائب فتدمر حياته ٠٠ وكان يكره كذلك الانين الذى تتفجر عنه الرئات الممزقة كالسم الملوث بصديد القروح المتعفنة ٠٠ فقد كان يعده تحطيما لكبرياء الرجل او اذلالا له ٠٠ حدث مرة ان صفعه ابوه وهو فى العاشرة من عمره لخطأ يسير ارتكبه فانحدرت الدموع من عينيه ، ولكن اباه ما كاد يسمع نشيجه حتى اجلسه امامه وراح يصرخ فيه ان يبطل البكاء وكأنما قد منحه ابوه سببا اخر لمضاعفة البكاء ، فلم يشعر الا ولطمة عنيفة تستقر على خده وتدفع برأسه الى الجدار فيرتطم به ٠٠ جمد كما لو انه

قد من حجر او كما لو انه ضحية كابوس مرعب كاد يخنقه فاستيقظ مذعورا • وخيل اليه ان سقف الدار يكاد يهوى عليه وان أباه يستحيل الى عملاق ضخم يندلق من عينيه لهيب أحمر ٠٠فراح يحملق فيه بذهول مطلق وشفتاه ترتجفان كما لو كانتا توقعان نغما كئيبا يشرنق حياته ٠٠ واختض لفحيح ابيه الذى لا يريد طفلا وضيعا كفتاة نواحة كأخته التى ظلت تبكى زوجها عشر سنوات حتى لحقت بـه ٠٠٠

ولقد ظلت هذه الصور مغروسة فى اعماقه لا تتزحزح كمرض وراثى لا مفر منه ولا يد له فيه ٠٠ ومع انه خبر الضعف البشرى حين اصبح رجلا وعانى هو نفسه تناقضا فظيعا اضطره الى اقتراف ما يكره وما يشمئز منه ، وصارع اضطرابا كاد يفقد معه ايمانه بالحياة لتقبلها من يواجهها بأقنعة متعددة ذات اصباغ صارخة متنافرة ، الا انه رغم ذلك ما استطاع التغلب على الجرثومة التى زرعها فيه ابوه ٠٠ وحين شعر ان شيئا ما يحفر موقيه كالرصاص وهد يدلف بسكون فى طريقه الى البيت وضع اصبعيه على عينيه وامرهما ان تجمدا ٠٠ ان ابنته مريضة اجل وان الطبيب قد عادها قبل فترة وجيزة ، وان الدواء الذى اشتراه توا يستقر فى جيبه ليخفف ما تحس به من الام ، ولكن مرض طفل او موته لا يعنيان الاستسلام للعواطف الرخوة او للدموع التى هى تحطيم لكبرياء الرجل ٠٠ قال له أبوه وهو يلطمه ـ ان البكاء صفة وضيعة للنساء لا تكون

للرجـــال ٠٠٠ ـ

انه لم يكن فيما مضى ابا قاسيا امام ولديه ٠ كان يلاطفهمـا ويلاعبهما ويحنو عليهما ٠ ولكن الحنو على طفل تشعر انه جزء منك أو بعضك أو أحاطته بالعطف شيىء وامتلاء الموقين بما يشبه الرصاص الذائب شيء اخر ٠٠ ـ ٠٠ اجل شيء اخر ٠٠ من لـم يعتد البكاء يشق عليه ان يستسلم له ٠٠ ـ همست شفتاه بذلك دونما ارادة منه ٠ فجفل كما لو ان افعى كانت تنساب فى ثنايا ثيابه ٠٠ فقد خشي ان يعاوده مرضه القديـم ويقيم مـع نفسه حـوارا لا ينتهى ٠٠ « ٠٠ مصيبتك انـك لا تـ تطيع ان تشفى نفسك من مرضها ٠٠ » وكز على شفته السفلى ليوقف ارتعاشها ٠٠ « الاجدر ان تبحث عن طبيب يشفيك من هذا الـداء ٠٠ » وكان الالم يخدر شفته السفلى ويثير فيه شـعورا بالانسحاق ٠٠ « ٠٠ لقد قاومت الـدموع واستطعت ان تتحـكم فيهـا ولكنك استعضت عنها بما هو اسوأ ٠٠ » ورفع يده الى شفته يتحسسها ٠٠ « ٠٠ ابنتك ! ٠٠ ستشرب الدواء وتشفى وربما ستضحك من اعماقها ضحكا بريئا ، اما انـت ! ٠٠ فـأى شـيء يجعلك تشفى ؟ ! » ٠٠ « لا مفر ٠٠ ستظل تحدث شخوصك الداخليـة الى ما لا نهاية ٠٠» ٠٠«وباءان ينخران فيك كما ينخر السوس فى لب جوزة ٠٠ وستحتفظ مثلها بالقشرة الخارجية ٠٠ ملساء بعض الشيء ٠٠ » ٠٠ وتـدفق السم يلـوث دمـه ٠٠ « مرفئك الوحيد ٠٠ الكأس ٠٠ لا مفر منها ٠٠ »

مزقت الخمرة شرايينه حين اضطر الى اللجوء اليها٠٠ « لكى

تنام كالشاة .. فهى الداء الوحيد .. العزاء الوحيد .. الشقاء السرمدى .. » واحس انه يختنق . لقد اصبح الامر اشبه ما يكون بالعادة . لم يكن فيما مضى يحدث نفسه كالحديث الذى يحدثها به الان ، ولم يكن يلح عليه كالوباء .. كانت تدور فى رأسه أفكار ولكنه يشكلها كائنات حية يسوقها الى من يعرف ... « .. اما الان .. » .. فأن حواره مع نفسه اصبح جزءا منه .. اصبح شيئا لازما له .. « .. وماذا كان بأمكانك ان تفعل سوى ان تنفس عنها بمثل هذا الحديث .. » ولكنه برم به الى حد الاختناق .. كان الامر فيما مضى يختلف .. « اما الآن » .. فأن كل شيء قد تهدم على خلاف ما كان يرجو .. « حين تخشى ان يحدس احد انك تفكر بشيء ما ؟ » .. فمعنى ذلك ان الحقد الاسود قد بلغ اوجه .. « حين تكون السكين مهيأة لان تغوص فى ظهرك لمجرد كونك تخالف من تتيبس عليها مخالبه فى التفكير ؟ ..» .. لقد رأى أشياء كهذه تحدث أمام عينيه فجمد ونحرت مثله كلها كقطط مذعورة .. « وبدأت تتهدم . قطعة .. قطعة .. »

ولقد عذبه حواره مع نفسه ، عذبه الى حد الاختناق .. كان يظل مستلقيا فى فراشه يتقلب دون جدوى و .. « تبدأ حوارك الطويل مع اشباح تخشى ان تواجهها بما يدور فى خلدك .. » صلبت اجساد فتية على اعمدة النور لانها تفوهت بما كانت تعتقده حقا .. « وبدأ كل شيء يتهدم فيك كبناء قديم .. » وظلت عيناه تنبشان الظلام وتبحثان عن مجهول يتقاذفه قدر

مخبول ٠٠ « وتزاحمت عليك الاشباح تريد تفسيرا واضحا » ٠٠ ولازمه حواره مع شخوصه الذين يتواثبون فيه ٠٠ « ولجأت الى الكأس لتخدرهم بعض الشيء ٠٠ » ٠

كان قبل ان تنطلق الغرائز المحمومة فى الشوارع تبحث عن صيد تنقع فيه سمها يحس ان حياته تسعى ، رغم التعثر ، الى تحقيق امل يفترش خياله ٠٠ « وانتحر كل شيء ٠٠ نقع الحقد سمه فيه » كان يضحك ملء رئتيه مع صحبه ، وكان لا يعدم النادرة يطلقها على نفسه والاخرين ٠٠ « وانقلب من كنت تصطفيه الى انياب ومخالب ٠٠ »

كانت هناك اشياء تدور حوله ولكنه ما كان يدعها تسيطر عليه لاعتقاده ببطلانها وقرب زوالها ٠٠ » وهكذا برهن لك ما وقع انك ساذج كبير »٠٠كانت الحياة تتماوج على شفتيه كأغنية ذات انغام متساوقة تبدأ هادئة ثم تشتد حتى تبلغ ذروتها الرائعة ٠٠ » وتسربلت الاغنية وحياتك وكل شيء بالدماء ٠٠» كان يتفلسف احيانا فلسفات صغيرة فيخال اليه انه علة الاشياء او سبب وجودها ٠٠ » وافهمك الواقع ان احلامك كلها عبث وانك تدور وسط وجود سخيف اقسى من العبث » ٠٠ كان يحب ان يتحدث عن كل شيء ويحترم كثيرا الافكار الشابة ٠٠ « ثم تعالت القهقهات تمزق شرايينك ٠٠ تسخر من بلاهتك » ٠٠ وحين تزوج كان يشعر ان عليه ان يؤدى دوره فى الحياة كاملا ٠٠ » وهل كان يمكن ان يرد الى ذهنك ان زفافا براقا

ينقلب الى جريمة ؟ ٠٠» وعض شفته السفلى ثانية ٠٠ لم تكن مؤلمة ٠٠ كان الخدر يجعلها تبدو منتفخة بعض الشيىء ٠٠ ثم رفع سبابته يتحسس موقيه٠٠ كانتا منتفختين٠٠ ذوب الرصاص يفور فيهما ٠٠ « حديثك عن الزواج ٠٠ نشيج اسود لا ينتهى ٠٠ كانت « حياته اشبه بوتر وحيد يسفح فى سكون الليل انينا موجعا ، كان يدور فى فراغ مطلق ٠٠ « وامتد الفراغ وتحول الى رعب » ٠٠ كان لطيفا مع زوجه ٠٠ ثنائية العزف امدته حيوية جديدة ٠٠ « واحترق القوس بين اصابعك » ٠٠ وظل ينقب فى الرماد ٠٠ الشيء الذء، كان يدندن اصبح مجرد حطام ٠٠ « وتحطم كل شيء ٠٠ حياتك ٠٠ ملايين الجزئيات الصغيرة ٠٠ خزائن الذكريات ٠٠ كل شيء ٠٠ حياتك بالذات عبث » ٠٠ كان يلذ له احيانا ان يخاصم زوجته ٠٠ ان يختلق لها ما يشاكسها به ، ان يغيظها الى حد الضجر ، ثم لكى يعمد الى ملاطفتها ومداعبتها ومناغاتها ، ولا يدعها تغفو الا بعد ان تكون قد انتشت الى حد الارتواء العذب ٠٠ « ثم جعلت تستخدمها فى طرد الاشباح التى كانت تفترسك » ٠٠ « حين يكون هناك من يريد افتراسك فلا اقل من ان تفترس من هو بقربك ٠٠ »

كان ذوب الرصاص يغلى فى موقيه ٠٠ « واى شيء كان بأمكانك ان تفعل غير ذلك ؟ ٠ حين تظل يقظا ٠٠ حين تشتبك مع شخوص لا مرئيين فى نقاش طويل مقزز ٠٠ حين يتقاذفك الضياع الابدى ! ماذا كان بأمكانك ان تفعل سوى ان تنهك جسدك بأهانة من بقربك ؟ » ٠٠ « حتى تنعم بأغفائة فلا بد من

ان تقوم بشىء ·· بديل اخر ·· الخمرة لم تعد قادرة على تخديرك·· الزوجة عجزت عن بعثرة السأم عنك·· الاولاد !·»

وتخثر ذوب الرصاص واصبح كرة من الصديد تمج نارا ·· كان يحب طفليه ·· كان يحبهما كأصفى ما يكون الحب ·· كان يعابثهما ويدعهما يعابثانه ، ولكن لا يجعلهما يخرجان عن حدودهما ·· كانت نظرة واحدة منه كافية لان تجعلهما هادئين ·· كان يشعر بسرور بالغ حين يجد ان طفله يلثغ بحرف الراء ، وان طفلته تمثل دور الامومة السعيد بأحتضانها لعبتها الصغيرة وانامتها معها فى فراشها ·· مرة واحدة حاول ان يتقمص دور ابيه ·· كانت الصورة التى غرسها فيه ابوه ما تزال تظلل جانبا من حياته ·· سمع ابنه يبكى فأندفع دونما وعى منه الى ارتداء الثوب الخشن ·· فوضعه امامه وامره الا يبكى ·· جمد الطفل وكانت شفتاه ترتجفان فأحس ان شفتيه هو الاخر ترتجفان ·· وكان العملاق الذى يتدفق من عينيه لهيب احمر يهتز امامه · وانخزل شىء فيه ، فأرتمى على ولده يقبله ·· « ان تقف فى وجه الطبيعة البشرية جرم لا يخلو من وحشية » ·· وكانت كرة الزئبق ما تزال تحفر موقيه ·· » لو استعنت بالبكاء لخفف عنك امل لم تعد تملكه ·· » ·

كان التأزم الذى يسود واقعه والذى كان يؤمن بحتمية زواله او تلاشيه يتعقد تدريجيا ، كان يخمن ان الحياة الحقة لا بد ان تفرض وجودها ·· اما المحاولات العابثة فى جعلها تتأرجح بين اليأس والموت فهى محاولات سخيفة ، انها قد تبدو ساكنة او

مخدرة لا تقوى على الحركة ، ولكنها حين تنتفض ٠٠ « ثم بدأ كل شىء يتهدم ٠٠ كل شىء ٠٠ النفوس ٠٠ الانسان ٠٠ الوجود ٠٠ وانطلقت الغرائز المسعورة تترصد الحياة فى الظلام لتقضى عليها ٠٠ « من لم يعتد البناء يجد لذة كبيرة فى الهدم » ٠ كان يشعر ان البناء جوهر الحياة٠٠ « ان تبنى نفسك بأستمرار٠٠ عمل عظيم ٠٠ ولكن الاصرار على هدم الاشياء النافعة !٠٠٠»

واستيقظ ذات يوم على اشياء كثيرة تدوى فى السكون، وكان الغبش يتماوج مع الغيوم المتناثرة ٠٠ كانت الاصوات التى يضخمها الصدى اشبه ما تكون بالحالوب الذى يتساقط على سقف من صفيح ٠٠ وادرك لتوه ان شيئا ما يحدث فى هذه البقعة من الارض ٠٠ ان الحياة تنتصر على القوى الشريرة ٠٠ « كان حدسا خاطئا ٠٠ ولكن من كان يخمن ان الحياة ستنكفىء ثانية على نحو افظع ؟ » واستيقظت زوجته مذعورة ٠٠ احتضنته مرة بشدة حين سمعت فى منتصف الليل صوت اطلاقة يأتى من بعيد ٠٠ « والان دوى مدافع » ٠٠ كان الرعب يجحظ عينيها ويخضها كنفاية لا خير فيها ٠٠ وراحت تحدق اليه برعب٠٠ « اهدأى٠٠ ولا تعذبى نفسك٠٠ ان الحياة تنتصر٠٠ فلكى يعم السلام هذه البقعة من الارض فلا بد من ان تشرب دماء الحاقدين » ٠٠ « انك ما زلت تتذكر حروفك بنصها » ٠٠ ثم راحت السكين تعمل فى الشفاه التى تحتفظ ببقايا بسمة ٠٠ واستيقظ طفلاه ٠٠ وزحف اليهما ٠٠ كانا شاحبين ويرتجفان ٠٠ « ورغم ذلك

تحملق فيهما بسعادة ٠٠ خمنت بأرتياح اخضر انهما يشهدان بداية الانعتاق ٠٠ بداية الحياة الحقة ٠٠ ان الرجال يصنعون الغد لهما » ٠٠ ولكن الطفلة لم تطق هذا الازيز المخيف فجعلت تبكى ، ثم التصقت بأمها ودفنت رأسها بين ثدييها ٠٠ « لا تبك ٠٠ ان الربيع سيعم ربوعنا » ٠٠ « من كان يسخر من الاخر ؟ ٠٠ الانسان ام القدر ! ٠٠ انت ام سذاجتك ! ٠٠» « الرجال يصنعون الغد لهما ! ٠٠ اى غد ؟ ٠٠ انك منذ البداية لم تلصق به صفة معينة ٠٠ اهو الحدس المبهم ؟ » ٠٠ وحاول الطفل ان يبدو انه اكبر من ان تخيفه اصوات غير مألوفة فتربع حضن ابيه ومد ذراعه الصغيرة حول عنقه ولكنه لم يستطع ان يمنع شفتيه من الارتجاف واسنانه من ان ترتطم ببعضها ٠٠ « كان الرعب يطحنها ٠٠ كانا يحدسان بغريزتهما ما ينتظرهما من ظلام » ٠٠ وحاول ان يهدئهما ، فقبلهما واحس ان شفتيه كانتا ترتجفان ٠٠ « حين لا يستدل على طبيعة الصراع الا بالحدس ! » ٠٠ وقال لهما ان ما يسمعانه اصوات بعيدة جدا لا تبلغهما ، وانها ستتوقف فى اية لحظة ٠٠ وطلب الى زوجه ان تقوم وتعد الفطور ٠ وكان قد حاول ان يبث الشجاعة فيها ببضع كلمات احس انها باهتة جوفاء ٠٠ وانتقلت الطفلة اليه واقعدها على حجره الاخر ٠٠ وكانت الاصوات التى تشبه حالوبا يقرع سقفا من صفيح تملا الجو بدوى مكرب ٠٠ والتصق به الطفلان حتى خيل اليه انهما يدخلان فيه ٠٠ « وكنت صامتا كتمثال ٠٠ كان الذهول يتثاءب فيك » ٠٠ ثم جعل يقبلهما ويهمس لهما

بكلام ساذج ٠٠ « لا تخافا يا ولدى ٠٠ ان كل شيء سيهدأ ٠٠٠ وستشرق الشمس ، وتزدهر الاوراد وتتمزق الغيوم ٠٠ ان الشر يطرد من ارضنا ٠ وسيعم الخصب حقولنا ، وتروق الكلمة فى شفاهنا وتنط السعادة فى منعطفاتنا ٠٠ وستضحكان ، وتلعبان فى مزارعنا التى كنا نحصدها للاخرين ٠٠ وستتمتعان بشبابكما ٠٠ تتمتعان ، تتمتعان ٠٠ ان التنين الذى كان يفترس صغارنا يقتل فى هذه اللحظة » ٠٠ وكانت موقاه تحترقان وكرة الرصاص تحفر طريقها تحت الجلد حتى تبلغ اذنه ٠٠ وكان سرب من النمل يقرص جلدة رأسه ٠٠ « الشيء الرائع فيك انك ما زلت تحتفظ ببعض الجمل اللطيفة » ٠٠ وكانت زوجه قد انتهت من اعداد الفطور ٠ فحمل طفليه ونزل بهما الى الطابق الاول من الدار ٠٠ كانا خائفين رغم كل ما قاله لهما ورغم قبلاته ومداعباته ٠٠ ورفض الطفل ان يتناول شيئا ٠ فكور الاب لقمة وضعها فى حلق ابنه ولكن الطفل احتفظ بها فى فمه ولم يلكها٠

وكانت الغيوم المتناثرة تتجمع وترتطم ببعضها ٠ وكانت السماء تنث رذاذا خفيفا ٠٠ والاصوات ما زالت تحدث ما يشبه وقع الحالوب على سقف من صفيح ٠٠ وكان القرع يشتد كلما مضى جزء من النهار ٠٠ وكانت زوجه وطفلاه قد جلسوا كقططط مذعورة ٠ وكانت الدموع تزدحم فى عينى زوجه ٠ ولم يكلمها فقد شعر بالسأم ينمو فى داخله ٠٠ وكانت الغيوم تسح شيئا من مائها ثم تقف ٠٠ وكان النقر يتعالى كما لو أن الكون كله يتمزق ٠٠ وكان الطفلان يصرخان ثم يسكتان٠

وكانت الشمس تبدو بين الغيوم كقرص اسود يغوص في بحر من الدماء ·· وتلاشى القرص وخلف دخانا اسود يلوب في الافق المخيف ويندس بين الغيوم الثلجية ·· وكانت النجوم التى تنفر عنها غيوم تبدو كلآلىء تعوم فى بحيرة زرقاء عميقة القعر ·· وكان الصدى يجسد النقر الذى يشبه وقع الحالوب على سقف من صفيح فيحيله الى دوى ترتج له السماء ·

وكانوا يقظين يسحق الخوف زوجه وطفليه ·· وحاول ان يحدثهم بشيء ·· ان يدارى رعبهم بحكايات كانت جدته تقصها عليه فى ليال كانت النجوم تمرح فيها دونما خوف ·· ان يشغل سمعهم بشيء غير صوت النقر الذى يشبه وقع الحالوب على سقف من صفيح ·· ان ينيمهم ·· وردد ·· « كان هناك سلطان يحكم بلادا واسعة لا تغيب عنها الشمس ابدا ·· وكان له فتاة ذات حسن ودلال تسبى القلوب وتحير العقول · وخطبها الى ابيها كثير من الامراء والوجهاء ولكن الفتاة كانت ترفضهم جميعا ·· كان قلبها قد وقع فى حب شاب وسيم ولكنه فقير » ·

وكان النقر يشتد ويقترب ويكاد يثقب جدار الدار · وكان طفلاه ملتصقين بأمهما ويرتجفان · وكانت الدموع تتبلور فى عينى زوجه ·· وتمتم ·· » لا تخافا ·· ان كل شيىء سينتهى ·· ان التنين ضخم ·· والقضاء عليه ليس سهلا · لا تخافا ·· ان الشمس فى صراع مخيف مع الظلام المنهزم ·· ستشرق الشمس فى بلادنا ·· وسينبت العشب ·· وستمرحان كثيرا ·· كثيرا ·· ناما ·· لقد وجدتما لتشهدا الربيع ·· وكان الغبش يلون الافق

بنور وليد ، وكانت النجـوم تنطفىء كقناديل نفـذ زيتها ٠٠ والغيوم تلوب مذعورة كحيوان مطارد ٠٠ التنين يطارد فى كـل مكان٠٠ وكان النقر قد بدأ يخف بعض الشيء ٠ ثم تضاءل حتى كاد ينقطع٠٠ « وبأنتهاء النقر ولد فيك امل اخضر٠٠ ان التنين مات ٠٠ ما حدث ؟ ! ٠٠ »

وتيبس الامل الوليد الذى رآه يخضر فيه فى لحظة عاصفة:٠٠ وجمدت شفتاه على قهقهة وحشية تمزق شرايينه ٠٠ « وبدأ كل شىء يتهدم » ٠٠ « لم يمت التنين ٠٠ ما ازل حيا يفترس صغارنا ٠٠ التنين نحن ! ٠٠ التنين يختبىء فينا ٠٠ تشربت دماؤنـــا روحه » ٠٠ وكانت نفسه تتهدم ٠ كانت تتهاوى تحت اقدامه٠٠ « كم من الوقت سيمضى حتى تعيد ما تهدم فيك ٠٠ ؟ مـا زلـت تحلم ؟ ٠٠ لقد انتهيت ؟ ٠٠ انتهيت كأنسان ٠٠ ما دام النصـل يلمع فى الظلام ليغوص فى لحمك ٠٠ ليمزق شفتيك اذا تمتمتا بحرف ٠٠ الانسان مات ؟ ! ٠٠٠ »

لقد ماتت الحياة ٠ ومـات معها الانسان ٠٠ والربيـع ٠٠٠ العشب ٠٠ والكلمة ٠٠٠ سلخت مثله كشياه مذعورة ٠٠ الدماء تشخب فى كل مكان ٠٠ الغرائز المسمومة تجوب الشوارع تبحث عن صـيد ٠٠ « قد تكون انت الصيد ٠٠ وقد يكون غيرك ٠٠ الحقد ناب أسود يبحث عن صيد ينقع فيه سمـه » ٠٠ وبالـرغم من ان الحقد روى الارض العطشى بدماء طرية الا انه كان فى

ظمأ لا ينتهى ٠٠ » جريمتك الكبرى انك شددت اليك مصائر اخرى ٠٠ ماذا انت فاعل بها ؟٠٠ الصدفة وحدها اضلت النصل عنك ٠٠ فهل تستطيع ان تتحكم فيها فتبعدها عن طفليك ؟ ٠٠ والحقد احرق ربيعا اخضر ٠٠ شباب كانت الحياة تغرد على شفاههم ٠٠ كانت الاطياف الناعمة تموج على اجفانهم ٠٠ » « الربيع مات قبل ان يولد ٠٠ وتخثر السم فى دمه ٠٠ واصبح طفلاه يخشيانه ٠٠ واصبحت زوجه تتحاشى نظرته ٠٠ كان يضرب طفليه دونما سبب وينهر زوجه بضراوة ٠٠ « الاشباح التى جثمت عليك جعلتك شيئا اخر » ٠٠ كان السم الذى يغذى دمه ٠٠ ينخر قلبه ٠٠ « حين يفقد الانسان صفته ؟ » ٠٠ « انك لم تعد شيئا ٠٠ لم تعد لك هوية » ٠٠

ومرضت طفلته مرضا شديدا ولم يشعر ان شيئا ما قد حدث ٠٠ وحين الح عليها المرض جاءها بطبيب ٠٠ « حين يموت الانسان فيك لا تعود تحس بأية مشاعر » ٠٠ « ذنبها انها ولدت فى عصر الانهيار ٠٠ فى بقعة عطشى منذ الاف السنين لدماء لا تجف ٠٠ فى زمن تجف فيه الينابيع ويموت العشب ٠٠ ويموت الربيع ٠٠ ويموت الانسان ٠٠ وتموت الكلمة ٠٠ »

وكان يسير ببطء٠ وكان شىء ما يحفر موقيه اشبه بالرصاص الذائب ٠٠ « حيث انك لم تبك فليس لك ان تفعل » ٠٠ « كنت ترثى العيون التى قرحها الورم » ٠٠ وكانت موقاه

تتمزقان ٠٠ « فتاة ٠٠ اتريد ان تكون فتاة نواحة كعمتك التى ظلت تبكى زوجها حتى لحقت بـه »٠٠ لو انه كان يحتفظ بشىء من المشاعر لتغير الامر بعض الشىء٠٠ « لقد تهدم كل شىء »٠٠

وكان قد وصل الى داره ٠٠ وامر عينيه ان تجمدا ٠فما كان يريد أن تثار فيه مشاعر لم يعد يملكها ٠٠ وكانت زوجه تحاول ان تخفى دموعها ٠٠ وكان طفله يلعب فى فراشه بعيدا عن اخته ٠٠ وكانت اخته تبـدو كدمية عبثت بها يـد شيطان ٠٠ كانت كنفايـة سئمها الوجود ويعمل عـلى ايـداعهـا جـوف الارض ٠٠ كان الطفح ينتشر فى وجهها وجسدها ٠٠ كانت لا شىء ٠٠ كانت كمن يقوم بتمثيل دور سمج اثار اشمئزاز النظارة فهـم يأمرونه بالاختفاء ٠٠ فتاة نواحة ٠٠ لماذا يلصق النواح بالانثى دون غيرها٠٠ الانها كائن تافه ٠٠لامعنى له ٠٠ يثير الاشمئزاز ٠٠ لماذا يحتقرون تمزق الانسان ؟ ٠٠ ضعفه ؟ ـ انهياره ؟ ـ ان احدا لا يتوارى من المسرح لمجرد ان بعض النظارة يحتضن بحرا من الصديد ٠٠ ان اليد التى تتيبس على نصل يلمع فـى الظلام ترتعد رعبا من الكلمة ٠٠ انهـا تخشى الـنور ٠٠ تخشى الربيع ٠٠ تخشى الحيـاة ٠٠ انها ترتعش ٠ والدماء ما زالـت تقطر من النصل اعتراف صارخ بالجبن ٠٠ انه يقضى على جسد طرى ٠٠ ولكن الكلمة التى تزدهر فى رأسه لا تموت ٠٠ يرثهـا عنه ابنه ٠٠ احفاده ٠٠ ان الحياة تؤكـد وجودها ٠٠ النصـل الذى يلمع فى الظلام ليغوص فى رئـة فتية رمز عارهم ٠٠٠

طفله ما ازل صغيرا٠٠ الطفلة مريضة٠٠ الحياة تحتضر فيها٠٠ الموت يزرع فى جسدها عشا احمر ٠٠ لماذا لا تختفى ؟ ٠٠ لماذا تصر على البقاء ؟ ٠٠ يجب ان تموتى ٠٠ فلانك طفلة يجب ان تموتى ٠٠ ذنبك انك وجدت فى عصر الانهيار ٠٠ عصر يخضر فيه السم كزهور الربيع ٠٠ العشب سم اخضر ٠٠ الحياة زجاجة سم تمتصها قطرة ٠٠ قطرة ٠٠

وكانت يده ترتجف وهى ترج زجاجة الدواء ، فجلس الى جانب الطفلة وطلب الى امها ان تسندها الى صدرها ٠ ونقط الدواء فى الملعقة وقربها من فمها ٠٠ كانت ما تزال تغمض عينيها ٠٠ وظل يحدق اليها طويلا ٠٠ كان كل شيء فيه يتمزق ببطء ٠٠ وكانت شفتاه ترتجفان ٠٠ تتمتمان ٠٠ كلمات حنان كانت تنتحب على شفتيه ٠٠ شيء افتقده من امد بعيد٠٠ النصل ما زال يقطر دما ٠ ٠الرعب يجتاح المدينة ٠٠ الغرائز المحمومة تجوب الشوارع تبحث عن صيد ٠٠ كان يناديها برقة ان تفتح عينيها ٠٠ فتحت الطفلة عينيها ٠٠ كانتا حمراوين ٠٠ الدم ينزف منهما ٠٠ العشب الاحمر يغطى جسدها ٠٠المسرح يلفظها ٠٠ وكانت شفتاه ترتعشان ٠ وهمستا بصفاء مسلوب ان تشرب الدواء ٠٠ قطرات سوداء تعيد اليها الحياة ٠٠ تعيد اليها ضحكتها ٠٠ كانت تضحك كثيرا ٠ ٠تضحك الى حد الاغراق ٠٠ وكان يشعر انه يتفتح ٠٠ براعم خضر تتفتح فيه ٠٠ وظلت الفتاة تحملق فيه ٠٠ كانت مشدوهة ٠٠ كانت تبدو كما لو

انها تسترد شيئا مفقودا ·· شيئا ظلت تنعم به فترة ثم تختفى ··· لا تدرى كيف ولكنه اختفى ·· الكلمة الطيبة تثير فيها احاسيس عجيبة ·· وفتحت فمها وشربت الدواء ·· لم تكن تصدق عينها ·· انها تحلم ·· تحلم بالربيع الذى مات ·· بالتنين الذى يفترس الصغار ·· كانت تنظر مشدوهة الى ابيها ·· وكانت عيناها مسمرتين فيه ·· وناحت اخيرا ·· ناحت نواحا واهنا اشبه بالصدى المتقطع ··

ـ بابا ·· تـ ·· حـ ·· بـ ذ ى ·· ؟ وانفجرت الام بنواح مكتوم ·· الفتاة نواحة ·· النواح رذيلة ·· البكاء ضعف ·· الالم ضعف ·· ابك ولكن بدون دموع ·· الرجل لا يبكى ··· الرجل كبرياء وشموخ ·· النصل ومض يحرق الربيع ·· التنين اله أعمى يفترس الحياة ·· الليل غابة تختبىء فيها الوحوش ·· الحقد ناب اسود يبحث عن صيد ينقع فيه سمه ·· الارض العطشى منذ الاف السنين تتشوق الى دماء جديدة ··· الرعب يجتاح المدينة ·· الانسان عفن يتكلم ·· جرثومة تأكل نفسها ·· الانسان قطرة صديد ·· الانسان يموت ·· الكلمة تموت ·· الربيع يموت ·· الطفلة تموت ·· فناء يغلف كل شيء ··

وكان ذوب الرصاص يحفر موقيه بالحاح ·· كان يغلى ··· يفور ·· واحترقت عيناه وهما تسكبان الصديد الذى كان يلهب رأسه ويبحث عن منفذ ···

الكوخ والجرذان والمطر

كـــان محمـــود يضـــرب الارض المتربة بحذائه الثقيـــل بقوة واصرار يكاد يندلق من بين اصابعه ليوهم نفسه ان انسانا ما، كائنا حيا، تحتدم فيه المشاعر والامال والرغبـــات ، مـــوجود فى تلك اللحظة فى ذلك الدرب الذى الفى نفسه يهيم فى شعابه دون ان يدرى كيف قادته قدماه اليه ٠٠ وكان الدرب موحشـــا مقفرا يزيد من كآبته اصداء الرعد الذى تفرقعه الغيوم الداكنة بين الحين والاخر٠ والمصابيح المرهقة المسمرة فى جدران بعض الخرائب تمـــج ضوءا ذليـــلا يورث التعاسة اكثـــر مـــما يوحى بالطمأنينة ٠

وكـــان شيىء ما يقرح قلبه ببطء فيملأ النـــزف الذى يقطـــر منه برتابة قاتلة فمه ويلوث كل تلك المشاعر والامال التى خيل اليه انها تحتدم فيه ٠٠٠

كان حزينا ، وكان حزنه يؤجج فيه غيظا فظا فيتمنى لو انه يملك القدرة على تحطيم العالم كله ٠٠

ودوى الرعد يتوعد الكون بزمجرات مرعبة ، وسرت فى ركام السحب القاتمة بروق منذرة كنار تنزلق فى بحيرة من الزيت الاسود ·· فأنتفض كيانه للحظة ثم همد مع الكآبة التى كانت تلهث فى كل جزء تقع عليه العين من ذلك الدرب الموحش ·· وانتصب امامه شبح رئيسه ببزته الداكنة يلوح له مرة ، ويبسم اخرى ، ويتهدده ثالثة ·· فأشاح عنه والنزف الذى يقطر منه يستحيل الى سم يغلى فى عروقه ·· كان يكرهه ·· وكان كل شيء فيه يرفض التعاطف معه او قبول فكرة التسامح التى كانت تفرضها عليه ظروف حياته الخاصة ·· حين ناداه قبل اقل من ساعة واذن له بالانصراف تمنى لو انه تف فى وجهه ·· رغبة دفينة ربما هى اقصى ما يتمناه ·· ان يتقدم بخطى ثابتة ويقف امامه ويسدد اليه نظرات تتأرجح احتقارا ، ثم يتف فى وجهه فقط ويخرج ·· وكان لسانه يدير فى فمه لعابا مرا تنز به ملاغمه ، فبصق بغضب وشعور بالذل يسحق كيانه بضراوة ·· لم يكن يملك غير الرضوخ لما يؤمر به ·· يضرم فيه احتقارا لنفسه لا حد له ··

لقد خلق لكى يكون اجيرا ينفذ ما يطلب اليه القيام به بصمت مطبق ·· مرة واحدة فقط حاول فيها ان يشعر رئيسه انه انسان مثله يحلم بالكرامة التى ما انفكت الشفاه تلوكها، فرفض القيام بعمل وجده امتهانا لكرامته التى كانت تخور فى ركن سحيق من نفسه ، فلم يشعر الا والصفعات تنهال عليه والبصاق

يملأ وجهه ، ثم يلقى فى حجرة مظلمة ٠٠ ولولا المحاولات التى بذلتها زوجه ودموعها التى ذرفتها امام رئيسه لظل رهن تلــــك الحجرة اكثر من شهر ٠٠ ومنــذ ذلك الوقت تعلم الا يجيــب الا بنعم ٠٠ يضرب كعبى حـذائيه ببعضهما ويرفــع يـده الى رأسه ويطلقها قوية لا تلعثم فيها ولا تردد٠٠ نعم !٠٠ سمعا وطاعة! ٠٠ وبالرغم من ان ـ النعم ـ هذه كانت تنخر فى عروقه كـداء لعـــين يؤجج فيه آلاما لا تطاق وتجعله ارقا يفكر دونما جدوى فى مجال اخر يحصل منه على قوت يومه ٠٠ الا انه كان اعجز من ان يجازف وهو يرى امامه الالاف يقتتلون فيما بينهم من اجـل الحصول على لقمة يتبلغون بها ٠٠

وكان ما يزال يضرب الارض المتربة ببطء ٠٠ واجفله مواء مذعور ينبعث من بين اقدامه ،وجد انه كان يدوس على ذيل قطة سوداء ٠٠ فـراح يحملــق فيهــا ببرود ورغبــة محمومة فى ان يضغط بحذائه على ذيلها ، ويظل مسمرا نظره فيها وهى تتلوى وتفــح برعب تتأكله بقسوة ٠٠ ماذا تستطيع ان تفعل غير ان تتلوى وتفح وما جدوى ذلك ! ٠٠ لقد ظل يتقلب فى فراشـــه وافاع سود تفح فى كيانه ٠٠ ولكنه لـم يكن يجرأ فيهمس فـــى وحـدته ـ لا ـ ٠٠ كان يتلوى ٠٠ وكان عليه ان يجـأر بنعم ، واضحة ، صريحة ، لا تردد فيها ولا تلعثم٠٠ مرة واحدة حاولت فيها ان اقول ـ لا ـ فماذا كانت النتيجة ! ٠٠ ومـا جـدوى ان تظلى هكذا تتمرغين فى التراب ٠ ٠اننــى اقوى منك ٠٠ اقوى

بما لا مجال للمقارنة٠٠ انك ليس اكثر من مخلوق تافه٠٠ حقير ٠٠ مثلي ولكني اقوى منك ٠٠ كما ان رئيسي اقوى مني ٠٠ انه حقير ٠٠ رأيته بعيني هاتين يستحيل الى جرذ يرتجف خوفا امام من جاء يستطلع ما يقـوم بـه ٠٠ والقى بثقله وراح يضغـط بحذائه على ذيلها بقوة ٠٠ فأخذت القطة تتلوى بعنف وتكشـر عن انياب دقيقة تلمع فى الظلام وتفـح فحيحا وحشيا ٠٠ ثـم فجأة ازاح قدمه عنها فأنطلقت هاربة واختفت فى خربة مهجورة ٠٠ ووجد شفتيه تنفرجان عن تكشيرة مرعبة وهو ينظر الى شبح رئيسه ينتصب امامه ثانية ويحملق فيه مهددا ٠٠ ماذا يبغى منه وقد ابدى طاعة فى تنفيذ ما امره به ٠٠ انه يعلـم ان الترقية التى وعده بها قد لا تتحقق حتى يستهلك ويرمى ، فقـد سمعه مرة يقول لزميله ، ـ اياك ـ اياك ، ان تستجيب لهؤلاء الاوباش ٠٠ انك ان استسلمت للعاطفة مرة واحـدة فأنهـم سيتكأكأون عليك كالحيوانات المفترسـة ٠٠ عـد فقـط ، واجعلهم رهن ما تعدهم بـه ٠٠ ولكن ، هل كان بأمكانه ان يرفض ! ٠٠ لقـد غاص فى الحقارة الى قمة رأسه واقترف صاغرا فظائع كثيرة ٠٠ فماذا يريد منه لينتصب خياله امـامه كمسـخ اشوه يثير فيـه الرعب ؟ ٠٠٠ ايكون قد استحال الى ظل له يلازمه كبعضه ٠٠٠ ام ان شبح الجلاد الذى يحسه يمزق كيانه هو الذى يتراءى لـه بين الحين والاخر ؟ ٠٠ جلاد ٠٠ لقد صيروا منك جلادا يلـون اجساد ضحاياه ببقع داكنة ثم يذرف عليها الدمع اذا اختلى الى نفسه ٠٠ ورغيف الخبز ٠٠ واولاده الخمسة ٠٠ وزوجه التـى

يحبها ٠٠ كيف يهيء لهم ما يملأ معدهم اذا هو تمرد على شـــبح الجلاد الذى يتمطى فيه ٠ منذ ثلاثة أيام جاء من يقــول لــه ان رئيسه يطلبه ٠٠ وحين مثل بين يديه وجده يلصــق عــلى وجهه اللئيم تكشيرة شوهاء هو وحده يعرف ما تخفى من قبــح ٠٠٠ ولقد كان رقيقا وناعما ٠٠ وراح يتحدث معه بهدوء ٠٠ سأله عن زوجه واولاده والحيــاة القاسيــة التى يحياهــا أمثالــه ٠٠ والسنوات التى قضاها بانتظار الترقية التى يستحقها ولم ينلها٠٠ واخبره بلطف ان العدل يقضى بأن ينال حقه كامــلا ، فمــا دام يقوم بما يعهد اليه بجد، ويعيش فى ظل نظام يعتمد العدالــة والحرية واحترام الانسان أساسا له، فأن من الطبيعى ان يحصل على ابسط حق من حقوقه المشروعة ٠٠ واخبره ايضا انه قــد أوصى بترقيته فعلا وذكر ما يتمتع به من طاعة وأخلاص ٠٠٠ وكانت شفتا محمود تتمتمان ولا تقولان شيئا ، ورقبته تدفــع برأسه يمينا وشمالا ٠٠ ويداه ترتفعان الى اعلى وتستقران على صدره ٠٠ كان مذهولا لا يدرى ماذا يصنع ٠٠ مشاعر غريبــة يفاجأ بها وفجأة نهض رئيسه من على كرسيه وخطا بضع خطوات وراح ينظر من خلال النافذة للحظات ٠٠ ثم استدار وهو يردد بخفوت عبارات ضخمة كثيرا ما وقف امامها عاجزا ، من ان النظام غاية ما يتطلع اليه الانسان الحر فى مجتمع الكفاية والعدل ، وان الفوضى والاضطراب ان هما سيطرا على مجتمع ما، فمعنى ذلك استحواذ الخوف الذى هو الموت بعينه على كافة أفراده فيحيلهم الى كيانات معطلة تدفــع بــه الى الهــلاك الحتمى ٠٠ وان واجبهم

الرئيسي يتجسد فى تحرير الفرد من الخوف وتحقيق الطمأنينة والامن ٠٠ وغيرها من الالفاظ التى لا يدرك كنهها وان كانت تثير فيه احاسيس مبهمة غامضة ٠٠ وما كاد يفرغ حتى قذف في وجهه بما هيأه له وظل يحاوره من أجله اكثر من عشر دقائق ٠٠ اذن فقد كانت المشاعر التى ظنها تنبعث من اعماق كائن بـدأ يعي وجوده تخفى فى ثناياها احط الدنايا واحقرها ٠٠ وشعر انه يتدآعى ، وفحيح الافاعى السود يتلاطم فيه كزوبعة عاتية تهب فجأة ٠٠ لم ينبس بحرف وان ظل للحظة يحملق فيه ورغبة عاتية فى أن يبصق فى وجهه تتأكله بعنف ٠٠ ولقد ضرب زوجه فى ذلك اليوم بقسوة وضرب اولاده الخمسة وكأن شيطانا ارعن يجتاح اعماقه ٠٠ مسكينة (وضحة) لكم جعلها تتعذب ٠٠ وطفح النزف الذى يحسه يقطر من قلبه ويملأ صدره قيحا يتصاعد الى فمه ٠٠ وفرقع الرعد فى ثنايا الغيوم السود ٠٠ منـذ يومـين والسحب تتراكم فى السماء وتتبعثر دون ان تسح قطرة واحدة وكان العرق ينزلق من رقبته بالرغم من القشعريرة التى كانت تسرى فيه٠٠ واسند ظهره الى خربة واخرج كيس تبغه وجعل يلف له دخينة ٠٠ لم يكن يعرف الوقت بالضبط ٠٠ ولكنه حدس انه قد تجاوز منتصف الليل ، وخمن ان زوجـه تغـط الان فى نومها ٠٠ وان اولاده الخمسة يحلمون كعادتهـم بشىء يؤكـل ٠ ولربما يحلمون كذلك بالامن الذى هو نقيض الخوف ٠٠ وبالحرية والكرامة والعدل التى ينعق بها المذيع طوال ساعات الليل والنهار ٠٠ هل تدركين ما بى يا وضحة ! ٠٠ لكم جعلتك تتعذبين ٠٠٠

ولكنى أحبك يا وضحة ٠٠ احبك بجنون ، وأنت تعرفين ذلك ، وتعرفين كم تعذبت بسببك ٠٠ كنت أظل مسهدا لا يغمض لى جفن وأنا أتملى صورتك فى الظلام ٠٠ كنت أذهب الى النهر واظل الساعات الطويلة أحملق فى المكان الذى كنت تغسلين فيه الاوانى ٠٠ وكنت اصعد نشيجا خافتا فترتعش له شفاهى وترسله نغما حزينا يناجى طيفك ويشيد بمحاسنك ٠٠ مذ ان وقعت عيناى عليك احسست بشىء يشدنى اليك ٠٠ كنت شابا يا وضحة ، وكنت قويا ، وكنت ارى الدنيا ترقص طربا من خلال عينيك السوداوين ٠٠ وكنت أحلم بالسعادة وبالبيت الذى سيضمنى وأياك٠ ٠ ولكنى جعلتك تتعذبين يا وضحة ٠٠ وكان العرق ينزلق فى رقبته بالرغم من القشعريرة التى يحسها تسرى فيه ٠٠ والسماء ترعد دون ان تسح قطرة واحدة ، والدرب موحشا يزيد من كآبته النور الذليل الذى تمجه المصابيح المرهقة ٠٠ وسحب نفسا عميقا من دخينته ٠٠ بعد قليل سيبلغ كوخه ويخلع حذاءه كما يفعل كل يوم ، وينفث دخانها الى السقف ٠٠ وما أن يفرغ منها ويسحقها بيده فى التراب حتى يعمد الى ملاطفتها وايقاظها ٠٠ كان يحس ان النوم لا يدنو منه اذا لم يأت وضحة وتمنحه نفسها ٠٠ لم تكن تتمنع عليه ، ولم تكن تتصنع الغضب فى حالات الخصام او الدلال فى حالات الرضى اذا هو أندس الى جانبها ليلا ٠ او صرف الاولاد ليلعبوا خارج الكوخ اذا راودها ظهرا ٠٠ حتى فى الايام التى كان يضربها فيها ضربا وحشيا ويترك فى جسدها بقعا داكنة ، كالبقع التى يتركها فى

اجساد ضحاياه ٠٠ فأنها ما كانت تصد عنه ٠٠ دغدغة واحدة منه فى اثناء اوبته وانسيابه الى جانبها كافية لان تمسح من نفسها كل ما كانت تحسه من آلام ٠٠ فتعانقه وتقبله وتهبه جسدها وكأنه ينثر حولها النجوم لآلىء لا تحصى ٠٠ كانت تحدس انه يعانى بمرارة من امور لم يشأ ان يحدثها عنها ، وان راحته القصوى تبلغ غايتها ساعة اتحاده معها ٠٠ وكانت الدخينة التى أشعلها ما تزال فيها بقايا ٠٠٠ وكان النزف ما يزال يملأ فمه قيحا عفنا ٠٠ والكآبة تلهث فى كل زاوية تقع عليها العين من ذلك الدرب الموحش ٠٠ واستدار يتلفت حوله ٠٠ لقد خلف الزقاق الذى يجثم فيه كوخه وولج الدرب الذى يفضى الى الحقل ٠٠وتراءت له الحشائش تتماوج مع الريح التى كانت تشتد حينا وتهدأ ٠٠ لكم تمنى ان يكون له حقل يزرعه بيده ويرعى غرسه ٠٠ وومضت فى رأسه مع البرق الذى سرى بين الغيوم كنار تنزلق فى بحيرة من الزيت الاسود فكرة ما أن تبينها حتى أطبق عليها بكلتا يديه فاستدار وراح يحث الخطى الى الزقاق الذى يجثم فيه كوخه ٠٠ وما كاد يلجه حتى راح يوقظ زوجه بعزم واصرار وهو يقول (انهظى واجمعى حاجياتك كلها ٠٠ وعند اول خيط من الفجر نكون قد غادرنا هذه البقعة من الارض ٠٠ لم أعد أحتمل ، وليس هناك غير حل واحد ٠٠ اما ان اقتله هذا الذى صيرنى جلادا او اقتل نفسى ٠٠ ان ما بى يكاد يجعلنى انفجر ٠٠ لمى حطامك بسرعة ولا تبقى شيئا ٠٠ لم اعد اطيق الرغيف العفن الذى أحمله اليكم ، لقد لوث دماءنا واحالنا

الى عبيد ٠٠ ولكنى لم اخلق لاكون عبدا ٠٠ ولم انجب هـؤلاء ليكونوا عبيدا لرغيف مشبع بالدم ٠٠ لم يعد بينى وبين ابشع جرم اساق الى اقترافه غير سواد هذا الليـل ٠٠ لقـد طلـب الى النذل ان اتهم شخصا شابا صغيرا ٠٠ ربما كان طالبا يملأ قلبى ابويه زهوا حين يخطو امامهما ، شابا يافعا ٠٠ لم يسبق لى ان رأيته ولا وقعت عينى عليه ٠٠ ولم يمر طيفه فى خيالى ٠٠ ان أتهم هذا الصبى انه كان يهتف ضد السلطة وضـد النظـام فى التظاهرة التى خرجت قبل اسبوعـين ، وان أقـول أننى رأيتـه بعينى هاتين يؤلب الناس على المسؤولين ويشتمهم ٠٠ لمى حاجاتك بسرعة ٠٠ ان ما بى يكاد يجعلنى أطق ٠٠ ودعينا نرحل ٠٠ نرحل عن هذه البقعة التى لا ترويها حتى الدماء ٠٠ عن هذا الكـوخ الذى يكاد يهوى بين لحظة وأخرى ٠٠ أنظرى الى سقفه ٠٠ ان جذوعه متآكلة ٠٠ ان الجرذان حفرت لها جحورا فى كل زاوية فيه ٠٠ الم تصرخى أمس فزعة من جرد كان يتزحلق على ساقك ٠٠ الم يقفز جرد بحجم كفى هذه على وجهى وأنا أحاول تقبيلك ٠٠ اسرعى ودعينا نهجر هذه الخربة التى تعيث فيهـا الجـرذان بالرغم من السغب الذى نعانيه وننطلق حيث النور والشمس ٠٠

ثم صمت فجأة وهمس : وضحة ٠٠ ولكن لماذا تملأ الجرذان كوخنا الخرب هذا دون بقية الاكواخ ؟! ٠٠)

... لماذا يكون البشر كالوحوش الكاسرة يفترس بعضهم بعضا ، وينتشون الى اقصى حدود الانتشاء حين يضعون افواههم على جراح الاخرين يمتصون دماءهم ؟ .. لماذا يكونون كالعناكب السوداء .. ابدا متحفزة للانقضاض على فريسة تلتهمها ؟ ...

الهمس المذعور

● من منا يستطيع ان يعرف الحياة ؟٠٠ انا لا أقصد الحياة كما أفهمها أو أحسها ، أو كما تفهمها أو تحسها أنت ، فأن لكل انسان مهما كان وضعه فى الحياة ، مفهوما وأحساسا خاصين به ، يتكونان عادة من الظروف التى يمر بها أو الاحداث التى تقع عليه أو غيرها من الملابسات التى تحدد مفهوم الاحساس لدى الانسان ، ولكنى أقصد ما هى الحياة ، كحياة ؟ ٠٠ ماذا تعنى بالنسبة للموجودات ؟٠٠ هل هى حلم ؟٠٠ هل هى حقيقة ٠٠ هل هى شىء ثابت لا يتغير ٠٠ هل هى جوهر متحرك ؟!٠ أم هى لا هذا ولا ذاك ٠٠ مجرد ضباب يصوره لنا الوهم ٠٠ انه يتسلل من أجرام ثلاثة ما أنفكت تدور منذ الازل برتابة قاتلة ، فيشكل وجودنا ويحدد نماذجنا ويخضعنا لسلطانه الغامض ؟ ٠٠ نكون ، فننمو فنهرم ، ثم نموت٠٠ونحن بين هذا وذاك نتقاتل ، ونحقد ،ونحب ونتناسل وغيرها من الالفاظ التى حددتها الحضارة لمشاعرنا واحاسيسنا ٠٠ ثم من اكون انا بالنسبة للحياة ؟! ٠٠ الحياة بعد ان بلغت هذه المرحلة من التطور والنمو والتقدم ؟ ٠٠ هل انا

فرد فى مجتمع معين ،يشكل سلوكه ويحدد اخلاقه وذوقه،ويصوغ ادق احاسيسه وما يسوده من مفاهيم متوارثة وعادات فطرية او مكتسبة ويخضع لها بالتالى خضوعا مطلقا ، أم انا دابة عمياء تخضع لذات الغريزة التى تسود نوعها ، تنقاد ببلاهة مطلقة وتجتر فى الليل ما مضغته فى النهار ، وتنفرج شفتاها عن تكشيرة قبيحة فى نفس اللحظة التى تعمل فى رقبتها سكين الجزار ؟؟! ٠٠ والجزار هنا ، اناوانت ، او اى كائن اخر ٠٠ ام انا دودة تدور مع ديدان كثيرة داخل مقبرة معلومة الحدود،لا يحق لاحداها أن تتجاوز ما فرض عليها والا فأن الاقدام تسحقها حتى لا يبقى منها شيىء ؟! ٠٠ هل انا مجرد شيىء ، يحدده رقم معين ، يعلم بخطين متقاطعين فى حالة انتفاء الحاجة اليه او حين يكون زائدا ٠٠ ام انا عدد يتألف من عدة ارقام يخطؤها اللسان فيلفظها ؟! ٠٠ هل اناكل هذا ، ام انا شيىء اخر ؟٠٠انسان يشعر انه اكبر من ان يخضع لافكار كانت تدور فى جماجم نخرتها الديدان منذ الاف السنين ، واكبر من تعبث به غريزة عمياء؟٠٠انسان يحاول ان يصنع وجوده وفق ما يريد ويشتهى ؟ ٠٠ انسان يشعر انه حر فى ان يتصرف بحياته كيفما يريد؟٠٠كائن يحس انه ذو اهمية عظمى بالنسبة لكافة الموجودات الاخرى ! ٠٠ ويدرك انه لولاه لما كان لاى شيىء اخر اى معنى ! بل لما كان لها وجود على الاطلاق ٠٠ وان وجوده وحده هو الذى يحقق وجود الاخرين وكافة الموجودات الاخرى !٠٠ انسان يشعر انه ذو ارادة حرة، وتفكير حر، وسلوك حر ٠٠ يسلك هذا الطريق او ذاك ، لا سلطان لاحد عليه ولا ينقاد لمشيئة غيره من الاموات ؟ ٠٠ انسان وليس

دابـة ! ٠٠ كائن حى وليس عددا او رقما فى عدد ! ٠ وجـود حـر مستقل وليس دودة تسحق ؟ ! ٠

ومن اكون انا بالنسبة للحياة ؟٠٠ بالنسـبة للضباب الـذى يصوره لنـا الوهم انه يتسلل من اجرام ثلاثة ٠ ما انفكت تدور منذ الازل برتابة قاتمـة ؟٠ وهـم ٠! خيال ! ٠٠ خلاصـة مـا تمخضت بـه الاجرام الثلاثة خلال دورانها الابدى ؟٠٠ شـبح مشدود بخيوط لا ترى سميناه القدر يحركه كيفما يريد ويرقص على وقـع نغم معين يصدر منه ولا يحق له ان يخرج عليه او يزيد اليه ؟٠٠

ومن اكون انا بالنسبة للحياة بمفهوميها ؟٠٠ وما هى مهمتى فيها ، ٠٠ ان اقوم فقط بما تحتمه على التربة التى وجدت عليها فاؤدى دورى فى البناء !٠٠ام ان اقوم بذات الحركات الايقاعية التى يريد منى ما اسميناه بالقدر ، ان اؤديها ، حتى يمل منـى فيزيحنى جانبا ؟٠٠

ثـم دعنا ننتقـل الى ناحية اخرى ، ناحيـة يقـال عنها انهـا صميمية او حياتية ، او الى الجزء الثانى المهم فى الانسان ٠٠ دعنا ننتقل الى ما سميناه بالعاطفة ٠٠ هل بأمكانك ان تنـقل لى ولو بصورة موجزة مفهوما بسيطا لها ؟٠٠ انا ايضا ضحكت من

اناس تساءلوا نفس ما اتساءل عنه الان ، باعتبارها شيئا مفهوما واضحا لا يحتاج الى تفسير ، فكل ما يصدر عن النفس او القلب يسمى عاطفة او شعورا ، وكل ما يصدر عن الرأس او المخ يسمى فكرا ٠٠ وكنت افهم ايضا ان العاطفة نوعان : وحشية تتصرف تصرفا شاذا ، ونبيلة سامية تتصرف تصرفا انسانيا ، ولكن مثل هذا التعريف ساذج او انه ترديد سمج لا قوال لاكتها الافواه حتى ملتها ٠٠ انا اريد ان افهم العاطفة كعاطفة ؟ ٠٠ كشيء احسه يجيش فى كبركان يقذف حمما متلاحقة ، او كبحر تتلاطم امواجه ٠٠ اريد ان افهم حقيقة ما يجعلنى احس اننى ذو كيان يتطاول حتى يكاد يبلغ السماء او يتضاءل حتى ينتهى الى ان يكون حشرة حقيرة ٠٠ اريد ان اقف على سرها كشيء احسه يملأ وجودى ببهجة طاغية مدمرة فانتشى الى اقصى حدود الانتشاء حتى يخال لى ان كل شيء اراه يستمد سروره منى ، او يجلبب وجودى بكآبة قاتمة فيغلف كل شيء بالسواد ويحيله الى رماد عفن ٠٠ انا ابحث عن تعريف يحدد هذا التناقض الفظيع الذى احسه يتبدل فى من لحظة الى اخرى ٠٠ لا تقاطعنى ! ٠٠ انا ايضا اعلم ان عاطفة كل انسان هى وريثة ظروف خاصة ، او هى خلاصة تجارب الانسان والاحداث التى وقعت عليه ٠٠ ولكن ، هل بامكانك ان تحددها بتعريف واضح ؟٠٠ ماذا تقول ؟ ٠٠ العلم نخل كل شيء ولم يدع امرا من امور الحياة دون تحليل او تفسير ، وانه قد اعتنى بالانسان خاصة بأعتباره مجموعة من

الاشياء المعقدة ؟ ٠٠ لا يا سيدى ، انا اختلف معـك فـى هـذه الناحية ، اجل ، لقد حلل العلم سلوك الانسان ، وبنى عليه نتائج كبيرة ، ولكنه كان يفعل ذلك بواسطة العقـل ، والعقـل وحش ذكى ليس غير ، يبيد ملايين الكائنات ببرود قاتل ، بل انه ينتشى فرحا اذا وجد ان تجربته في ابادة الملايين قد نجحت٠٠ ولكن ، ما هى العاطفة ؟ ٠٠ ما هـى الاحاسيس التى تتوارد عـلى فتجعلنى اشعر بسعادة لا تحد ، او بكآبة مظلمة ؟ ٠٠ واين يكون العلم او العقل ازاء حرصك القاتل لامتلاك شيء لا يساوى حصاة ؟ ٠٠ وماذا يستطيع العقل او العلم ان يقول فى القصبة الجافة سوى انها نبات من نوع معين يعمل منها الانسان احيانا اداة يعـزف عليها بأن يصنع فيها عدة ثقوب يضع اصابعه عليها ثم ينفـــخ فيها فيخرج منها صوت معين ؟ ٠٠ هـل الواقـع كذلك ؟ ٠٠ لا يا سيدى ! ٠٠ انا لا اسأل عن القصبة ، ولكنى اسأل عن هـــذا النغم الذى يصدر منها ٠ هذا الذى يجعلنى احس كما لو ان بحرا يتلاطم فى او كما لو ان مناحة تقام فى ٠٠ ما هو ؟٠٠ ماذا ؟٠٠ اشياء قد لا تفسر وانما تحس فقـط ؟ ٠٠ ويكفى ان نتـناول الامور كما هى اذا اردنا لنفوسنا الراحة والاطمئنان ٠٠ ولكنى يا سيدى ، اريد ان اكون على بينة من امرى ٠٠ ان افهم حقيقة ما يصدر منى ٠٠ ان افهم وجودى ٠٠ ان احدد طبيعة تصرفاتى ٠٠ ان اعرف من انا ؟ ٠٠

تتساءل لماذا اثقل عليك بكل هذا الحديث ؟ ٠٠ تقول انك

تظن انه مقدمة لما اريد ان احدثك بـه ؟ ٠٠ ماذا ايضا ؟ ٠٠٠ محاولة للتعبير عما يسمى بمرض العصر ؟ ٠٠ تقول حين يبلـــغ العذاب اقصاه فى انسان ويجد الوجود امامه يمسخ ويشوه فأنه لا يملك الا ان ينفجر ؟٠٠ وان القدر قد شاء ان تكون امامـــى فى هذه اللحظة بالذات لتشهد كيف يتحطم الانســان ؟٠٠ انـك مخطىء فى هذا ٠٠ فأنا لم اتحدث سوى عن اشـياء عامـة ٠٠٠ احاسيس قد يشترك فيها الناس بصورة عامة ٠٠ وان كثيرين قد رددوا مثل هذه الخواطر بفهم اعمق حتى كادت تبتذل ٠٠ تقول انها تصدر عنى فى هذه اللحظة بالذات فهى جديدة ؟ ٠٠ وهـى خاصة بى ٠٠ وتمثل الذروة للشقاء الانسانى ؟ ٠٠ ولكن هـل تستطيع ان تضع امامى الانسان السعيد ؟ ٠٠ الانســان الــذى يولد وينمو ويهرم ثم يودع الحياة وقد استنفذ طاقاته كلها فــى التنعم بها ؟ ٠٠ المسألة نسبية ؟ ! ٠ ولكن لـماذا تكــون نســبية ؟٠٠ لماذا يكون البشر كالوحوش الكاسرة يفترس بعضهم بعضا، وينتشون الى أقصى حدود الانتشاء حين يضعون افــواههم عــلى جراح الاخرين يمتصون دماءهم؟٠

لماذا يكونون كالعناكب السوداء ابدا متحفزة للانقضاض على فريسة تلتهمها ؟ ٠٠ هل ورد فى اى سفر من اسفار الحياة مـــا يشير الى ان الانسان لا يمكن ان يحيا الا اذا جعل طعامه لحـــوم الاخرين ؟ ٠٠ او انه لا يمكن ان يكــون عظيمــا او عبقريــا او زعيما الا اذا جعل من الدماء خمرة يتغنى بها ؟ ٠٠ وانه لا يمكن ان يحافظ على حياته او يبقى على وجوده الا اذا جعل من جلـود

خصومه طبولا يدق عليها فى الازمات الحادة ليسكت بها صراخ نفسه وغضب الاخرين ؟ ٠٠ لك ان تطرق كما يحلو لك ،ولكنى اريد جوابا ؟ ٠٠ ولو كنت ممن اعتادوا الصراخ لعطت بوجهك ٠٠ ــ اريد جوابا ؟ ٠٠ ــ تقول : ماذا اسمى هذا كله ؟ ٠٠ تطلب منى ان اهدأ قليلا حتى يمكنك ان تتحدث الى بهدوء ؟ ٠٠ انا هادىء ، يا سيدى ، الى اقصى الحدود ٠٠ لم احطم قدحا ولم اقذف بوجهك اناء الشاى ، بل كنت اصرف غضبى مع ذاتى ٠٠ لم اقف على جثة ولم اسلب حقا ، ولم اتلذذ بدماء ، ولم احاول ان ارد اللطمات التى ما انفكت تتهاوى على ٠٠ ولم اسع الى احالة حياة الاخرين الى بركان يستعر ٠٠ انا لم احطم سوى حياتى ، ملكى ٠٠ وبعد فهل لك ان تحدثنى ، فأنا كما ترانى هادئا ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ ان الانسان رغم ما بلغه من حضارة وتقدم ومدنية وتطور لم يستطع بعد ان ينتزع من اعماقه اكياس الحقد السخيمة ؟ ٠٠ بل لماذا لاتقول انه ما زال يعيش فى الغاب ! ٠٠ وما زال يستمد اسباب وجوده من روحية الغاب وطبيعته ٠٠ وان ما يحدث من تطور انما فى الوسائل التى يستخدمها فقط ٠٠ ان فئة اكلة لحوم البشر كانت حين تصطاد فريسة ، تضعها فى قدر كبير توقد تحته نارا وتتحلق حولها ترقص وتصرخ حتى تنضج الفريسة ٠٠ اما الان ، فأن الفئة المتحضرة توقد النار وتدفع اليها ملايين الشباب ثم تقرع الاكؤس ابتهاجا بالنصر لماذا اضحك ؟ ٠٠ ان قولك هو الذى يضحكنى يا سيدى ، هل حقا

تعتقد ان البشرية فى طريقها الان الى ادراك طبيعة وجودها؟٠٠ انا لا اريد ان احاجيك ولكنى اسأل فقط ٠٠ كم هى الاشـيـاء العظيمة التى تتحدث عن طبيعة الحياة ؟٠٠ ملايين ؟٠٠ لا يمكن عدها او حصرها؟٠٠اذن اذا لم تستطع هذه الاكوام التى لا تحصى من كتب وفن وموسيقى ان تلطف من طبيعة الانسان منذ ان بدأ ينظم حياته حتى الان ٠٠ متى اذن تقع المعجزة ويتخلص مـــــن رواسب الغاب ؟ ٠٠

تتثاءب ؟ ٠٠ تقول ان حديثنا عن الحياة والوجود والكـون لا ينتهى ؟ ٠٠ واننا لو قضينا العمر كله نتحدث عنها لما انتهينا الى شىء ؟ ٠٠ وان كثيرين غيرنا انفقوا حياتهم فى التنقيب عنها فما استطاعوا ان يزيلوا عن سطحها غير قشرة رقيقة لا تكاد ترى؟٠٠ تقول ايضا ان علينا ان نتناول الامور ببساطة فلا نعقدها هـذا التعقيد فنحيل حياتنا الى عذاب مستمر ؟ ٠٠ ماذا ايضا ٠٠ ؟ ان احدثك عن السبب الحقيقى الذى دفعنى الى مثـل هذا الحديـث ؟ ٠٠ يبدو انك تقع فى التناقض الفاضح دون ان تدرى ، فمـا ان اطلب اليك ان تحدد لى بعض المفاهيـم الخاصـة وتجرنى الى الحديث عن الحياة والنفس حتى تأخذ بالتثاؤب ، ثم تعود فـى ذات اللحظة لتطلب منى ان اقفك على الاسـباب التـى دعتنى الى مثل هذا الحديث ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ تقصد ان اذكر لك حادثا معينـا سبب لى مثل هذا الهيجان العاطفى ؟٠٠ تقول لابد ان يكون هناك

شيء خاص ٠٠سبب معـين ؟ ٠٠ ولكن هل تملك مثل هذا الوقت او مثل هذه القابلية لالقى عليك بحمـل كلـه ؟ ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ انك لا تقصد ان اسرد عليك سيرة حياتى ، فأنت تعرف جانبـا كبيرا منها ؟ ٠٠ وانك تعرف ايضا اننى لا ابلغ هذه الدرجة من الغليان الا اذا وقع على حادث معين ٠٠ واننا قد تحدثنا فيما مضى عن فوارق كثيرة عشناها حتى نهايتـها القاتمـة ، وتطلـب ان احدثك عما اثارنى اليوم او البارحة او خلال هذا الاسبوع فاعاد على مثل هذه التصورات التى تسميها كئيبة ؟ ٠٠

الواقع اننى مررت بتجربة منذ ثلاثة ايام ولم اتأكد بعد عما اذا كانت هى السبب ام لا ، هذا فيما اذا اعتبرنا ان المحاولـة التى يقوم بها الانسان لفهم نفسه او الحياة هى نتيجة حادث مـر بـه او شيء تسبب فى ايذائه ، وليست رغبة مجردة لتحديـد موقفه من نفسه ومن الحياة ٠٠

قلت ، انك تعرف ، بحكم صداقتنا وزمالتنا والامور المشتركة بيننا ، جانبا كبيرا من حياتى ، وتعرف انى انسـان جـاد مـع نفسه ، اى اننى احاول ما استطعت ان اردها عن كـل مـا اراه سخيفا لا يضيف اليها جديدا ، وتعرف ان الكتب تستهلك معظم وقتى ، وانى ابحث دائما فى الاشياء المطلقة ، ابحث عن الجمال ولكنى لم احاول ان ادنسه فانا اعتبر ان اية محاولة للعبث بـه

انما هى اهانة للوجود وللجمال ذاته ٠٠ وابحث فيما ينبغى ان تكون عليه العلاقات فى المجتمع الواحد ٠٠ وتفيض نفسى بحب صادق للناس كبشر ولكنى اخاف الفرد واخشاه ٠٠ كفرد ؟٠٠ انت ايضا ؟ ٠٠ تقول انه على الرغم من وجود اشياء كثيرة مشتركة بيننا،ومصارحة احدنا الاخر فى كثير من الامور الخاصة فأننا ما زلنا نحتفظ فى اعماقنا بزوايا خفية اخرى كثيرة لم تبلغ الجرأة ولن تبلغ بأحدنا ان ينشر ما فيها فى احضان الاخر ؟ ٠٠ لا بأس ٠٠ ما تقوله حق ، ولكن دعنا نعود ، ما دمت تريد ذلك الى حديثنا، او الى البحث عما تسميه بالسبب الذى جعلنى مهتاجا فى هذا اليوم ٠٠ فأنا اذن ، كما قلت ، انسان هادىء يتطلع الى الحب والجمال وينشد الطمأنينة ، ويحاول ان يعطى لحياته قيمة خاصة بمحاولته الدائبة فى فهم نفسه وتحليل سلوكها وتصرفاتها ٠٠ ولا ارانى اجد حرجا فى ان اقول لك اننى اشعر بفخر لانى استطعت ان اكبح جماح نفسى فلا ادعها تلوث وجودى ٠٠ اجل ، هناك امور لا مناص من الوقوع فيها ، ولكنها قليلة ولم تستطع ان تعبث بى ٠٠ ما اقوله لك شيء سريع ، يكاد يكون عاما ،او هو مقدمة لما تريدنى اناذكره لك ٠٠

انت تعرف فحنان ٠٠ تلك الفتاة التى شاهدتها اكثر من مرة معى ٠٠ وتعرف انى منعتك من ان تتحدث عنها بسوء ، او تطعن بسلوكها او تصرفها ٠٠ وتعرف ان معرفتى بها ترجع الى اكثر

من ستة اشهر ٠٠ واحسبنى قلت لـك ان الفتـاة ذات حساسية دقيقة وشعور مرهف للغاية ، ولكن ارجو ان تكون على ثقـة انه بالرغم من هذه المدة الطويلة ، وبالرغـم مـن جمالها الصـارخ وشفافية روحها وحديثنا المتصل عن الجمال والحب والطبيعـة والفـن ، وبالرغم من هذا كله فأنى لم الـق عليها نظرة اشتهاء واحدة ٠٠ تعر فذلك ؟ ٠٠ مسكين انا ؟ ٠٠ لا بأس ، دعنـى امضى فى الحديث ٠٠ وقبل بضعة ايام ذهبت مع صديق الى احد النوادى الليلية ٠٠ لك ان تحتفظ بقهقهتك الى ما بعد الحديث

وهناك ، وفى لحظة من اللحظات العابثة ، وكان صاحبى قـد استدعى بعض الفتيات وقضينا الليل معهن ٠٠ شعرت ان شيئـا ما يخـز الجانب المنسى فى ٠٠ قد لا استطيع فى هذه الساعة ان اصف لك ما شعرت بـه بالضبط ٠٠ ولكنى احسست كما لو ان حياتى كانت قد انزلقت من بـين اصابعى كحبات الرمل اليابسة وانى لم اعش ايـة لحظة من لحظات حياتى كما ينبغى ان تعاش وانما وجهتها الى امور بعيدة كل البعد عن حقيقـة الحيـاة ، او انى صددت نفسى عن اشياء كثيرة ما كان يجب ان احرمها مـنها ٠٠ وان كل محاولاتى فى فهم نفسى او فى فهم ما يدور حـولى كانت مجرد عبث لم اكسب منه غير الفراغ الذى اراه يمتـد امامى الى ما لا نهاية ٠٠ احسست ان شيئا ما يئـن فى بكآبـة ٠٠ويصرخ ان الحياة الحقة تلك التى تعاش حتى نهايتها السعيدة

لا التى ينقب فيها ·· ولا اكتمك انى تعذبت فى تلك الليلة عذابا لم اعرفه من قبل·· اذ ليس من السهل ان تواجه فجأة وبشكل حاد وعنيف حقيقة صارمة تقول لك انك قد بعثرت سنيك كلها كما تبعثر الريح دقائق الرمل ، وانك لم تجن سوى العذاب والالم ·· ولم تنعم ولو بلحظة واحدة مما حرمته على نفسك ·· وانك لم يبق لك سوى ان تنتظر بكآبة ان تنطفىء الشعلة فيك فتودع جوف الارض ··

ولقد ظلت مثل هذه الاحاسيس تجيش فى حتى خلت ان هناك رحى تطحن بقسوة لحظات حياتى ·· لحظة ·· لحظة فتحيلها الى هباء ·· وأحسست ان شيئا يتمرد فى ويحطم الاغلال لينطلق دونما حدود ··

والتقيت حنانا فى اليوم التالى ، وكانت اعصابى كلها ما تزال متحفزة للوثوب ·· فحاولت ان التزم ذات الرصانة التى اطرت بها وجودى ·· فشعرت كما لو ان هناك شوكتين مدببتين مهيأتين لان تسملا عينى اذا حاولت ان اقف دون احاسيس نفسى الطبيعية ·· كانت الرحى تدور ·· وكان صوتها يدوى فى اذنى كوحش جريح ·· وكان حديثى معها عذبا رقيقا فى بادىء الامر ·· وكنت انظر فى عينيها وانا اتحدث ، فكنت اشعر كما لو اننى امام ينبوع من العسل النقى ·· ثم بدأ حديثى يشوبه شىء من

من المرارة حينما رحت اتحدث دونما شعورعن الحياة وكيف ينبغى ان تعاش ، وعن اللحظات التى تمضى دونما رجعة ، وعن الايام التى تسلخ دقائق وجودنا واحدة واحدة ثم لا نشعر الا واننا قد بلغنا النهاية دون ان ندرى ودون ان نعرف من النعيم الذى هو فى متناول ايدينا .. وذكرت لهافيما ذكرت أن الاوهام المجردة حين تسيطر على الانسان تجعله فى عمى دائم ، واننا لا نصحو عادة الا بعد ان نكون قد غدونا حطبا جافا.. ومع ذلك فلم احاول ان المس يدها او ادنى فمى من فمها الذى كان يقطر شهوة .. او اضع رأسى بين نهديها وابكى .. وبالرغم من اننى كنت اقرأ فى عينيها تهيؤها المطلق لقبول اى شىء يصدر منى ، للمسة حنان اطفىء بها صخب عواطفها ، وبالرغم من اننى كنت احس ان الدموع تغلى فى عينى ، واننى بحاجة قصوى الى ان ابكى بين نهديها ، ان تجفف دموعى بشفتيها ، ان استعيد فى لحظات سنوات الجفاف كلها . .ان .. لماذا لا تضحك ؟!.. لماذا لا تطلق شماتتك كلها بقهقهة صاخبة ؟ .. اهذا ما كنت تبحث عنه.. ان احدثك عن السبب الذى اثار فى كوامن عواطفى ، عن العلة والمعلول والسبب والنتيجة ! .. ماذا ؟ .. لم افهم ما تتمتم به لماذا تتعثر فى آلكلام هكذا ؟ .. تقول ان ما قصصته عليك لا يثير الضحك ! .. اى شىء يثير ؟ .. الرثاء ؟ .. ولا هذا .. ماذا اذن؟..تقول انك تطلب اولا خاتمة هذه القصة؟تسأل عن النهاية اية نهاية؟ .. نهاية هذا الموقف العاطفى المشبوب؟ .. ليست هناك نهاية يا عزيزى .. هناك شىء واحد فقط .. هناك مهزلة

او سخرية او سمه ما شئت ٠٠ ولكنه ليس نهاية ٠٠ ماذا ؟٠٠ تصر على ان اقفك على الخاتمة مهما كانت ؟٠٠ تقول لابد ان تكون هناك نهاية ؟٠٠ انا لا اريد ان ادور معك فى فراغ ، فما اعقب هذا الموقف لا يصح ان يسمى نهاية او خاتمة بقدر ما هو نكتة ضخمة اطلقتها الحياة فى قهقهة سخيفة ٠٠ ففى الوقت الذى كنت فيه اعيد مع نفسى ، فى اليوم التالى، ما تفوهت به امام حنان ، وأتمثل قسماتها المشرئبة ونظراتها المحملة بصراخ العاطفة ، وشفتيها السخيتين ، وتعطشى المحموم فى ان اضع راسى بين نهديها الثائرين واستاف منهما رائحة الانثى العبقة ٠٠ اذا بصديقنا أحمد يطرق على بابى ويبعثر كل ما كنت احاول ان استمد منه اسباب وجودى ٠٠ كان فى حالة من النشوة لا توصف ٠٠ كان يرقص ويغنى ويصفر لحنا طروبا ٠ ٠كان يبدو انه مشدوه ٠٠ كان ثملا ٠٠ وجعل يتهته بكلام هو السم بعينه ٠٠ كانت حروفه رؤوس افاعى تلتصق بجسدى ، فتحيل كل شىء الى سم اسود ٠٠ كان يردد بسماجة بشعة ان ـ حنانا ـ وافته عصر امس وذهبا معا الى احد الاماكن الهادئة يتبادلان القبل والعناق ٠٠ شلل كان يخدر اعضائى كلها ٠٠ دجى استحال كل شىء امامى ٠٠ كتلة من الحجارة كنت ٠٠ فلم اقو على ايقافه فلا ادعه يردد ما كان ينعق به والنشوة تتقاذفه ككرة من المطاط ، من ان حنانا كانت تهمس فى اذنه ، وشفتاه تسحقان شفتيها ، شيئا فهم منه انها تقول له ان العمر ينزلق من بين اصابعنا كحبات الرمل الجافة ، وان الشباب سيتحول الى حطب جاف

اذا نحن ظللنا متمسكين بكبريائنا السخية وقطعنا عنه ماء الحياة

لك الان ان تطلق ضحكتك حتى نهايتها وان تطلق معها سمك كله ٠٠ اليس هذا ما كنت تتوقع ان اقوله لك ؟ ٠٠ لقد وضعنى القدر دائما موضع تجربة يهزأ بها فى ادق المواقف حراجة ٠٠٠ ان الامر لا يقتصر على حنان فقط ، فلقد تأكد لى ان ما اختاره يكون دائما لغيرى كما لو ان مهمتى فى الحياة هى ان اختار للاخرين ما يبحثون عنه ، ان اهيىء لهم اسباب الحياة ٠٠ ولكن، لماذا تقطب هكذا كما لو ان ما حدثتك به لا يدعو الى التسلية على الاقل ؟ ٠٠ تقول ، ان ما قصصته عليك شيء طريف حقا وان كان يدعو الى الرثاء ؟ ٠٠ لابأس فى ذلك ، فأن ما ابغيه فى هذه اللحظة هو ان انتزع منك حسا معينا ، ليكن رثاء ، او سخرية ، فليس ذلك بالمهم ٠ ٠ماذا تقول ؟ ٠٠ ان حس الرثاء الذى اثرته فيك ليس سببه ما قصصته عليك انما شيء اخر ؟ ٠٠ ماذا ايضا ٠٠ تقول ان ما حدثتك به لا يبعد ان يكون محاولة مكشوفة للتهرب من السؤال الذى طرحته على ؟ ٠٠ وانه تملص طريف من واقع لا يمت اليه بصلة ، ولكن ، ما هذا الذى تقول ! ٠٠ ان ما حدثتك به وقع فعلا فلماذا تسيء الظن الى هذا الحد ؟ ٠٠٠ تقول ، لا علاقة لسوء الظن او حسنه فى الامر ٠٠ ماذا ايضا ؟ ٠٠ حاولت ان اجعل النهاية فاجعة لاثير فيك عاطفة معينة تبعدنا عن حقيقة ما حاولناه فى بداية حديثنا ؟ ٠٠ انا لا اعلم عن اى شيء تتحدث ٠٠ انت تعرفنى جيدا ؟ ٠٠ حسنا ، وهل

عرفت فى الكذب ؟ ٠٠ لا ؟ ٠٠ ولكنك افسدت الحكاية كلهـــا
بشكوكك التى لم افهم القصد منها ٠ ٠ماذا تقول ؟٠٠ ان نكون
صريحين ؟٠٠ ولكن ، ماذا تريد ان تقول بالضبط !٠٠ لقـــد
حدثتك عن مشاعر عامة كنت اشعر انها تتلاطم فى كبحر هائـج
كما يمكن ان تراود اى شخص اخر ، ولكنك لم تقتنع ، وحـــين
رحت انقب فى ما حدث لى خـلال الايـام السابقة تـذكرت مـا
قصصته عليك ، وخمنت انا ايضا ، انها سبب كل تلك الخواطر
التى قد تكون قاتمة بعض الشىء ، هذا كل ما هنالك ٠٠ ولا اظن
اننى كنت احوم حول شىء اخر غير ما ذكرته لك ٠٠ ماذا ؟ ٠٠
تقول ان الشك بدأ يتسلل اليك لان التناقض واضح بين ما بدأت
بـه وبين ما انتهيت اليه ؟ ٠٠ ولكن ، اى تناقض هـذا الـذى
تتحدث عنه ٠٠ تقول : انه ليس هناك من علاقة بين حديثى المر
عن الوجود والحياة وعن الاحساس القاتل الذى ما انفك يوحى
الينا من اننا اشبه ما نكون بخراف تجتر فى الليل ما تقضمه فى
النهار ، وتنفرج شفاهها عن تكشيرة بلهاء ، فى اللحظة التـــى
تعمل فيها سكين الجزار وبين ما قصصته عليك ؟ ٠٠ ماذا ايضا
؟ ٠٠ انك لا تجد اية رابطة بـين مـا حدثتـك بـه عن واقـع
حياتنا من اننا اشبه ما نكون بديدان تتكاثر داخل مقبرة مسورة
تدور فيها وتبحث فى الاجداث عن غذائها وبين حكاية حنان ؟٠
مهـلا ٠٠ لا تسرع فى الحديث هكـذا ٠٠ ثـم لمـاذا كل هـذا
الانفعال ٠٠ ماذا ايضا ؟٠٠ تقول : انك لا تعرف ان هناك فتاة

اسمها حنان وانما اختلقها خيالى القصصى لاتهرب من الاجابة ؟ انا اتهرب ؟ ٠٠ انا افتعل كل هذا افتعالا ؟ ٠٠ ابلغ بك الامر الى هذا الحد ؟ ٠٠ بل كيف سمحت لنفسك ان تطعن ما حدثتك به ٠٠ تقول ان الرعب الذى يسيطر علينا جميعا هو الذى افقدنى الثقة حتى بنفسى ؟ ٠٠ انا ما زلت اسأل عن اى شيء تتحدث ! ٠٠ تقول : انك لم تعد تهاب شيئا ؟ ٠٠ حياتك لم يعد لها معنى ؟ ٠٠ فقدت كونها وجودا يعاش ؟ ٠٠ ماذا ايضا ؟ ٠٠ اذا جرد الانسان من كرامته وحسه وتفكيره الخاص يضحى اشبه ما يكون بالدابة العمياء ؟ ٠٠ ليكن حديثك خافتا فما حاجتك لمثل هذا الصراخ !٠٠ تقول انك تتحدث بما يشبه الهمس ولكن الرعب الذى زرعه فى البعض هو الذى يجعلنى اتخيل انك تتحدث بصوت مرتفع ؟ ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ اننا اشبه ما نكون بالخراف التى تساق الى ساحات الذبح ولا تدرى احداها متى تعمل فى رقبتها السكين ؟ ٠٠ انا لم اتفوه بشيء كهذا ! ٠٠ ماذا اصابك ؟ ٠٠ تقول انك احد الذين فقدوا صفتهم فى الحياة ؟ ٠٠ انت تبحث عن هوية لك ؟ ٠٠ عن حقيقة وجودك ؟ ٠٠ كل فرد هنا يبحث عن حقيقة وجوده ؟ ٠٠ ماذا ايضا ؟ ٠٠ الانسان هنا معلق بشكل مقلوب ؟ ما يحدث فى كل لحظة يعمق من احساسك فى الفناء التام ؟ ٠٠ تقول : شفاه بترت لانها جرؤت وهمست مع نفسها بحديث خاص ؟٠٠ الهمس مجرم ؟٠٠ ماذا ؟ ٠٠ ان المهمة الوحيدة التى يتقنها البعض هنا هى ان يظل

وجهك ممرغا فى الوحل ؟ ٠٠ ان تكون ذليلا ككلب جائع ؟ ٠٠ دودة حقيرة تسحقها الاقدام اذا حاولت ان تبحث عن غذاء لها فى غـير الاجداث العفنة ؟ ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ ان البعض هـنا نجـح فى تحطيم نفسية الفرد تحطيما تاما ؟ ٠٠ فى ازاحـة كـل من كون لنفسه رأيا معينا ؟ ٠٠ فى جعلنا حيوانات اليفة ؟ ٠٠ الا يكون هنا فكر ؟ ٠٠ الا يكون هنا انسان ؟ ٠٠ انا تفوهت بشىء مثل هذا ؟ ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ تزعم اننى تحدثت بأكثر من هذا ؟ ٠٠ متى ؟ ٠٠ تزعم ان ما بدأت بـه هو نتيجة احساسى المستمر بالفنـاء المطلق ؟ ٠٠ انا ابحث عن صـفتى ؟٠٠ هويتـى ؟ ٠٠ وجودى ؟ ٠٠ انت ايضا تبحث عن هويتك ؟ ٠٠ الاخرون ؟ ٠٠ فقدوا احساسهم بكونهم بشرا ؟ ٠٠ ماذا ؟ ٠٠ علينا ان نسير كالقطيع الاعمى ؟ ٠٠ ان نكون دمى يحركها نغم معين يوقعه جزار مخبول

تقول : ان هناك الافا يتضورون جوعا لانهم امتنعوا ان يكونوا خرافا ، رفضوا ان يرقصوا على وقع فحيح يسمونه نغما ؟ ٠٠٠ تقول : ان الكثيرين علقوا على اعمدة النـور لانهم اثروا القبـر على ان يكونوا وحوشا ؟ ٠٠ سحلوا فى الشوارع وهم احياء ؟٠٠ ماذا ؟ ٠٠ انك لست عددا ؟ ٠٠ لماذا تخور كالثور الذبيح ؟٠٠ ماذا ؟٠٠ عليك ان تثـأر لجـوع الاخرين ٠ ٠لكل الـدماء التى تدفقت ينابيع ثرة فى الارض السبخة ٠٠ للانسان الذى يصلب حيـا ؟ ٠٠

لم تعـد تطيق ؟ ٠٠ تنصرف ؟ ٠٠ الظلام يشتد ؟ ٠٠ لا تكاد

تسمع همسة ؟ ٠٠ الفجر على وشك الانفجار ؟ ٠٠ انفجار ؟٠٠ تقصد انه لم يبق بيننا وبين الفجر سوى ساعات قليلة ٠٠ جـدا قليلة ؟ ٠٠ تقول ان حكاية حنان طريفة بعد كل شيء وتتمنـــى بأخلاص ان اقع على فتاة حقيقية وليست حروفا يشكلها القلـم كتعويض لحرمان مستمر ؟ ٠٠ ولكن هل تعتقد حقا ان هناك من تقبل ان تقترب من بقايا ؟ ٠٠

ورن جرس الباب رنينا طويلا مستمرا ، وسـمعت ضوضـاء كثيرة فى الخارج وخشيش اسـلحة ٠٠ فأدرك لفوره ان سـاعة الذبح قد حانت ،وان دوره فى الفداء قد حان ٠٠ وجمد لحظة قبل ان يجمع اوراقه المبعثرة ٠٠ ثم انحنـى يلمها ٠٠ وتمتـم بذهول : ــ ولكن ، كيف استطاعوا ان يحدسوا اننى كنت اتحدث مع نفسى ؟! ــ ٠

● وحين وجد الكتاب ذاته معروضا في واجهة احد المكاتب بعد اكثر من اسبوعين .. كان يملك حينذاك دينارا .. فوقف يقلبه ثانية ويستعرض فصوله مجددا .. وتمنى صادقا لو أن للبائع سلطة عليه فيمد يده الى جيبه وينتزع منه الثمن انتزاعا ويريحه

كتاب

حـين لمحه معروضا فى واجهة المكتبة للمرة الثالثـة ، احس ان شيئا يتلوى فى اعماقه ويدفعه الى عمل شيء غير عادى ٠٠ كأن يختطف الكتاب اختطافا ويمضى بـه الى مكان هـادىء لا يبرحه حتى يفرغ منه ٠٠ فوقف يتأمله طويلا بسهـوم وقـد انمات كل ما كان حوله من ضجيج وكأنه لم يكن ، وحسرة مروعة تمـزق احشاءه ٠٠ ولو لم يربـت كتفه صـديقه ـ أحمـد ـ ويوقظه من الحلم اللذيذ الذى غرق فيه وينبهه الى انه لم يبـق بينه وبـين الساعة التاسعة الا بضع دقائق لظل ينظر اليه كـما ينظر المتيم الى صورة حبيبته مرتسما فى البدر وهو يسبح فـى السماء الزرقاء تحف به النجوم بأحتفال مهيب ٠ ساهيا عن كل ما حوله ٠ وغير ملتفت الى شيء ٠٠ حتى الدائرة التى يقبـر فيهـا حياته الطرية لقاء بضعة دنانير كل ما تفعله له ان تجعله يحيـا حياة اشبه بالعدم ، حياة تافهة كأتفه ما تكون ٠ والتى يعتبرها مع ذلك ، الوريد الوحيد الذى يمده بشيء من الدم ، غفل عنهـا

وكأنها لم تكن ٠ ٠وبحركة بطيئة جدا وجد نفسه يستدير ويمضى الى حيث يعمل كما يحدث لالة صغيرة تتوقف عن الحركة لحظة لسبب طارىء ٠ حتى اذا امتدت اليها يد خبيرة ، وحركتها قليلا مضت تدور برتابة مؤدية العمل الذى صنعت من اجله بكل دقة ونظام ٠٠

كان الكتاب يبحث فى الفن والادب ويتحدث عنهما حديثا عميقا وافيا منذ بدأ الانسان يفكر بهما ٠٠ وحين وجده معروضا للمرة الاولى وقف يقلبه بأمعان ويستعرض فصوله فصلا فصلا والرغبة فى اقتنائه والوقوف على ما فيه تكاد تستحوذ على كل جوارحه ٠٠ ولقد هم ان يدفع للبائع ثمنه لو لم يتذكر ان عليه ان يسلم الدينار الذى فى جيبه الى دائرة الكهرباء صباح ذلك اليوم والا فأن النور سيقطع عن داره وبذلك يوجد ازمة جديدة لا يظن انه يستطيع حلها بسهولة ٠٠ فتخلى عنه مكرها ومضى يدفن ايامه الغضة فى ابغض مكان لديه ٠٠

ولقد تغاضى عنه فى اليوم التالى كما يتغاضى المحروم عن وجبة شهية والجوع يكاد يمزق امعاءه ،ومضى وهو يحاول ان يوهم نفسه انه لم ير شيئا ، وان كتابا جديدا رائعا لم يظهر للوجود ٠٠ ولكى يعيد الى نفسه شيئا من الطمأنينة الكاذبة ، فقد راح يذم القراءة بكل ما يستطيع من قوة ويلصق بها كل ما فى الحياة

من رذائل ، فلقد ظل يقرأ سنوات عدة بنهم لا يوصف ، ساهرا الليل كله ومتخليا عن كل ما فى الحياة من ملاذ ، حتى شبابه الغض تعافى عنه ولم يستجب لاتفه رغبة يلح فى طلبها ، فماذا افاده كل ذلك . ·لا شيء سوى انه سمح للآلام الغلظة ان تشق فى نفسه اخاديد لا تمحى ، وللقروح ان تتورم ، وللكآبة ان تستحوذ عليه ·· اجل انها استطاعت ان تعمق ادراكه للاشياء وان تجعله ينظر الى الحياة والوجود نظرة فيها الشيء الكثير من النعقل ، ويكتشف بعضا من جوانبها الخفية ، ولكن ماذا افاده ذلك كله وكل من حوله يجابهه بالسخرية والاستهزاء ·· ثم انها هى التى جعلته مرهف الحس على هذا النحو الذى يقاسى منه الامرين ، فلم اذن يشقى هذا الشقاء الفظ اذا وجد كتابا جديدا تقذ فبه احدى المطابع وكأنه غاية ما يتمنى فى هذا الوجود ! ·· الم يتمنى كثيرا ان يكون كسائر الناس ! ·· نقطة ضائعة وسط هذا البحر اللجب ؟·· نقطة صغيرة لا يحس بها احد ولا يشعر بها مخلوق ·· تلمع فى ذاتها التماعة واهنة ثم تنطفيء فى العدم السرمدى وكأنها لم تكن ·· فلم يحاول فى لحظات مجنونة ان يكون شيئا فى هذه الحياة ؟ ·· اى شيء سيجنى ؟·· الخلود !! ·· عند من ؟! ·· عند اناس اموات ·· يذكرونه ثم يموتون ؟! ·· وتمتم بحزن : سخافة ··

وما كاد يبلغ محل عمله ويغرق فى عمله الرتيب حتى كاد

ينسى كل شيء ٠٠ القراءة والكتابة وكل ما يتعلق بهما ،ولم يبق ما يدور فى رأسه غير عمله المتواصل ٠ عمله الذى يكرهه بعمق ، بل راح يتابع زملاءه فى احاديثهم المتهرئة الميتة ، ويشاركهم شعورهم الطاغى بالفرحة الكبرى للعلاوة الجديدة التى ما زالت الحكومة تعد بها ٠٠ يشاركهم شعورهم وفرحهم كما لو ان العلاوة المرتقبة تلك هى اقصى ما يمكن ان يناله فى هذه الحياة ٠٠

ولقد التقى عصر ذلك اليوم صديقه ــ أحمد ــ وما كادا يستقران فى احد المقاهى ويمضى بهما الحديث الى الادب وشؤونه حتى ذكر له صديقه الكتاب الجديد ، فالهب بذلك الجمرة التى تتقد فى اعماقه ٠٠ كان يريد ان ينساه او يتجاهله على الاقل ولكن صديقه ــ أحمد ــ ابى الا ان يذكره به ليجعله يتلوى المـا ٠٠

لم يكن ــ سالم ــ يدرى اى شيء يعمل او ماذا يقول ، فظل صامتا لا يجيب واشياء كثيرة تتلوى فيه الى عمل شيء ٠٠ ولم يطق صبرا فمد اليه يده ، امر لم يلجأ اليه مطلقا رغم العوز الذى يعانيه ، وطلب منه ان يقرضه دينارا يشترى به الكتاب٠٠ لم يبخل عليه بالمبلغ ، وبعد دقائق كان ــ سالم ــ يطوف المكتبات واحدة واحدة يبحث عن الكتاب ، ولكن الكتاب كان قد نفذ ٠٠٠

وحين يأس من العثور عليه راح يضحك بجنون ٠٠ ولقد ظل يضحك حتى كادت امعاءه تتقطع ،وعادت الصور القاتمة توحى له من جديد بأشياء كثيرة ، وراح يستقبح هذه العادة القبيحة ، عادة القراءة والاوهام السخيفة التى تتبقى عنها ٠٠ وعلى غير شعور منه، وكأنما اراد ان ينتقم لنفسه من هذه الخيبة التى منى بها ، وجد نفسه يجلس فى مكان هادىء بالقرب من دجلة وامامه قنينة مملوءة بالعرق ٠٠ وبعد الكأس الثانية كادت الخمرة توحى له انه شىء ضائع ٠٠ عبقرية ضائعة وسط كائنات جردتها الاحداث المتعاقبة من الاحساس النقى ٠٠ وضاعف هذا الشعور احساسه بما كان يعانى من الآم ٠٠

لم يذكر الكتاب لصديقه ـ احمد ـ فى اليوم التالى ، ولم يقل له اى شىء ، فقد كان يحس ان الخيبة التى منى بها لم تكن وليدة الصدفة ، وهى على ضآلتها تشكل حلقة لا تنفصم من الفواجع الكثيرة التى تواجهه بها الحياة ٠٠ وان الحديث عنها وعن احاسيس العظمة التى تواردت عليه بعد الكأس الثانية قد تثير فى صديقه بالرغم منه شعورا بالرثاء او بالشفقة ، وهذا ما يبغضه اشد البغض ، فراح يمتدح ما فى الكتاب من افكار رائعة ويوهمه انه ماض فى قراءته ٠٠

وحين وجد الكتاب معروضا فى واجهة احد المكاتب بعد اكثر

من اسبوعين . كان عنده حينذاك دينارا .. فوقف يقلبه ثانية ويستعرض فصوله مجددا .. وتمنى صادقا لو ان للبائع سلطة عليه فيمد يده الى جيبه وينتزع منه الثمن انتزاعا ويريحه .. اجل، كان يملك دينارا، ولكن زميلا له فى الدائرة كان قد وعده بشراء حذاء له بالنسيئة من بائع يعرفه ، فقد مضت بضعة شهور وهو يرقع حذاءه الذى اشتراه منذ ما يقارب السنتين ، حين لم يعد يليق به ان يلبسه كموظف على الاقل ، لا لشاب يريد ان يظهر بمظهر لائق .. كان يود لو ان للبائع سلطة عليه فينتزع منه الدينار ويسلمه الكتاب ولكن نظرة واحدة الى حذائه البالى جعلته يغرق من جديد بكآبة عميقة .. فترك الكتاب ومضى كطعين يبحث عن خلوة يداوى فيها جرحه.. ولقد اشترى حذاءا جديدا فى ذلك اليوم ونفذ الكتاب من الاسواق مرة ثانية ... واحس براحة .. فقد كان يخيل اليه انه سيكون اهدأ بالا اذا كان الكتاب غير موجود ...

ولكن اسابيع قليلة اخرى لم تمض حتى لمح الكتاب معروضا للمرة الثالثة .. فشعر بشىء غامض يستيقظ فى اعماقه ... ماذا يفعل حتى يستطيع الحصول عليه ؟ ولقد كان يفعل هذه المرة ويشتريه مهما كان الامر لو انه كان يملك ثمنه .. فوقف ينظر اليه طويلا وقد سهى عن كل ما حوله .. ما كان يرى غير الكتاب ، وقد كان يخمن انه عظيم ، فالمؤلف اجنبى مشهور ،

والمعرب قدير فى التعريب ، وهو ضخم تزيد صفحاته على الخمسمائة ، ومنذ ان تصفحه للمرة الاولى ووقع نظره على ما تحويه فصوله ، احس احساسا عميقا ان ثقافته ستظل ناقصة اذا هو لم يقرأ الكتاب بأمعان ويتدبره جيدا ٠٠ ولكن ، كيف يستطيع الحصول عليه ! ٠

لقد ظل ينظر اليه واشياء كثيرة تموت فى اعماقه ، ولو لم ينبهه ـ احمد ـ بوجوب الذهاب الى الدائرة ، لظل ينظر اليه غير ملتفت الى كل ما حوله ٠ ٠وفى الطريق جعل يستعيد بعض فصول حياته والشقاء الذى يعانيه فى سبيل الحصول على كتاب يقرأه ، رغم كل شيء ، رغم يأسه وسخطه ، وتشاؤمه ، وفقره٠٠

ان العادة ، عادة القراءة قد تمكنت وتحكمت فيه ، ولم يعد له فيها اختيار ٠٠

فلقد حاول مرة ان يبعد عنه شبح القراءة ولا يجعل كتابا يقع فى يده، فألقى بكتبه بعيدا عن عينيه، وجعل يتحاشى المرور من امام المكتبات ويلهى نفسه بأشياء اخرى لا تمت الى القراءة بصلة ٠ ٠ولكنه لم يستطع ان يصبر اكثر من اسبوع وبعض اسبوع ، وهى اطول مدة قضاها دون ان يقرأ شيئا ٠٠ فقد احس بفراغ رهيب لا يملأ ٠٠ فما كان يستقر فى مقهى حتى يدعها الى حيث لا يدرى ، يجوب الشوارع او يذهب الى ساحل النهر

يتملى السكون ويبحث فيه عن اشياء كثيرة لا يدرك كنهها ولكنه يحس انها تنقصه ٠٠ حتى اذا عاد الى المقهى ثانية جلس ينظر الى الناس وهم يلعبون الطاولة او الدومنة والبهجة تشع فى وجوههم٠٠ ينظر اليهم ويغبطهم ويتمنى لو انه هو ايضا يستطيع ان يملأ هذا الفراغ الذى يحسه بلعبة واحدة من الدومنة كما يفعل اولئك الذين يجلسون حوله ويملؤن كل ما يشعرون به من فراغ بلعبة واحدة من تلك اللعب التافهة ٠٠ ولكن فراغه ما كان يملؤه شىء غير القراءة ٠٠ فقد كانت تطارده كالداء العضال لا يختفى الا يعود كأقوى ما يكون ٠٠٠

وما كاد يبلغ الدائرة حتى تذكر شيئا كما لو انه الهم برأى لا يدرى كيف غاب عنه ٠٠ ماذا يحدث لو انه عاد الى المكتبة وسأل صاحبها ان يعطيه الكتاب على ان ينقده الثمن فيما بعد ، حين يتسلم راتبه٠٠وليس بينه وبين موعد الراتب غير ايام معدودات وقد خمن ان صاحب المكتبة سيعطيه اياه ، فهو يعرفه جيدا ، فكثيرا ما كان يبتاع كتبا ، فنسى الوقت والدائرة ورجع ٠٠٠ ولكنه ما كاد يصل حتى وجد ان الكتاب كان قد بيع منذ لحظات ٠٠ وقد اخبره صاحب المكتبة انه كان قد احتفظ به لزبون منذ اكثر من اسبوع ولكنه لم يأت ٠٠

لم يشأ ـ سالم ـ ان يقول اى شىء ، انما نظر الى البائع

نظرة حزينة واستدار الى حيث يقبر ايامه الغضة ٠٠ الى حيث يجبر على سماع احاديث زملائه المتهرئة الميتة ويشاركهم شعورهم بالفرحة الكبرى للعلاوة الجديدة بصمت متنـاه ٠٠

● ان كل شيء يقول ان الامر لا هزل فيه ..

وارتعش جفنه الايمن ارتعاشة خفيفة ولكنها استمرت تحدث فيه اهتزازا بطيئا، فمد يده الى جانب كرسيه وكشط منه شظية صغيرة ووضعها على جفنه .. اللهم اجعل ما حدث بداية خير وبركة

النشيج المبحوح

كـــــان يشعر كما لو ان رأسه يـدو ، وان نظره يتعثر في فراغ قاتم لا روح فيـه ، وان شـيئا يدغـدغ راحته اليمنى ويثـير فيه احساسا غريبا يكاد يكون وحشيا ٠٠ ورفع راحته الى عينيه وراح يحملق فيها بعناد شره ٠٠ كان يبحث بالحاح كتـوم عن الخط الذى كان رقيقا طريا ذات يوم ينحدر من اعلى راحته وينتهى بخط الوسط ويلتصق بـــه التصاقا مباشرا ٠٠ لقـد قالت لـه مرة احدى عرافات قريته وهى تزحف بأصبعها عليه ونظرتها مسمرة فى وجهه ـ ان شيئا ما فى الامد البعيد، سيحدث لهـذه الكـف ـ ان الشقوق التى احدثها فيها العمل المتواصل فى الارض ٠ والحروق التى اصابتها فى اثناء ما كان يساهم فـــى عملية اطفاء النـار التـى شبت فى بعض بيوت قريته وتجاعيد السنين القاسية قد اعفت تماما معالمها ولم تترك فيها غير تعاريج شوهاء لا معنى لها ٠٠ وطوى اصابعه ببطء شديد عليها ثم دسها فى جيب بنطلونه الخاكى ليمنع نفسه من ان تصدق ان خيطـــا

طريا كان يتعرج فيها كنهر صغير يتدفق من عـين وليدة ٠٠٠ والتمعت فى عينه دمعة شائهة هى بقايا حياة تشيخ ٠٠ لم يكن يريد ان يصدق ان ما حدث لـه قبل قليل هو من قبيل المصادفة لا غير او الخطـأ المحض او السهو غير المتعمد ٠٠ كانت الدغدغة مـا تزال تبعث فيه خدرا طفوليا اشبه بالترف الذى كان يجـده فى بيوت من كان يعمل عندهم ويجعلون منه فى اكثـر الاحيـان مرتعا خصبا للتسلية حـين يشعرون ان خيطا من الضجر يكاد يزحف على حياتهم الرائقة ٠٠ ــ ولكن ما حدث قبل قليل لم يكن ليشبه ما كان يفعله بى ابن السيد ، انه امر مختلف ٠ ــ اهـو حقا مختلف ؟ ٠٠

تملمـل درويش فى كرسيه بعض الشىء ، وهوم رأسه ببطء لينفض عنه ثقلا كبيرا كان يحسه يجثم عليه بقسوة ويعبث بكيانه كلـه ٠٠ ورفع ساقه اليمنى ووضعها على ساقـه الاخرى ليهىء لجسده وضعا مريحا بعض الشىء قد يعينه فيما كان يحسه مـن ضعف وانهاك ٠٠ ولم يشـأ ان يخـرج راحته من جيبه ، كـان يخشى ، ان هو فعل ذلك ، ان يتلاشى الوهم ، او الحقيقة ، لم يعد يعرف تماما ما هو ، وتتلاشى الدغدغة الغريبة التى كانت تخدر يده ٠٠ وارتفعت يده اليسرى لتمسد رأسه الاصلع ثم اخفضها وجعل يحك بها اسفل رقبته ٠٠ ــ اهو حقا مختلف ؟ ــ ووجد ان نظراته كانت مشدودة الى حذائه الاسود ٠٠ كان ما يزال يلمع


بدأت الآن تنشد وتحتج
مرآة سلبية كانت الشرقية بها .. ولكن كنت غبياً .. ولست كذلك الآن

فلم يمض على ترقيعه سوى اسبوع واحد كان اخر حذاء اعطاه له السيد منذ ما يقارب العام ··

ان كل شيء يقول ـ ان الامر لا هزل فيه وارتعش جفنه الايمن ارتعاشة خفيفة ولكنها استمرت تحدث فيه اهتزازا بطيئا ، فمد يده الى جانب كرسيه وكشط منه شظية صغيرة ووضعها على جفنه ·· ـ اللهم اجعل ما حدث بداية خير وبركة ـ ·· ـ لا يمكنني ان اصدق ان الامر كان خطأ ـ واحس بما يشبه الماء البارد يجول في صدره ، وبشيء من الزهو تتفتح له نفسه ، فافترت شفتاه عن ابتسامة عجوز اضاءت تجاعيد وجهه الكثيرة بنور شاحب لقد كان شيء فيه يتحرك ، امل رأه يمزق بأنياب مسمومة والدماء تشخب منه عطرة ندية ·· لقد امل ذات يوم ان يذهب كسائر الناس الى المدرسة ويصبح ـ ملا ـ يقرأ ما هو مكتوب في الجرائد ويفسره الى امه وابيه في ليالي الشتاء الباردة ·· وكان جفنه ما يزال يرتعش رغم الشظية التي وضعها عليه ·· ـ اللهم اجعله خيرا ـ واخترقه سهم حاد ·· ـ راعي غنم ·· صبي حلاق ·· عامل طين ·· خادم في البيوت ·· ثم مستخدم براتب يذوب مع ملامسة الهواء له ·· ـ ومزقت حلقه آهة كأنها الابر ·· ـ اشترط على السيد حين وعدني بأيجاد عمل لي في دائرته ان تنوب عني ام جاسم في خدمة زوجه سناء ـ ولقد كانت تقص عليه زوجه ام جاسم احاديث غريبة عما لمانت

تشاهده فى بيت السيد ، ولم يكن يجهل كل ذلك ، بل واكثر مما كانت تقصد عليه ، ولكنه لم يكن ينقل اليها الكثير مما كان يتفرج عليه ، ولم يكن كذلك يريد لزوجه ان تدخل مثل هذه البيوت وترى بعينها ما كان يحاول ان يخفيه عنها ٠ ـ الجوع قهار ويتحكم فينا كآلة ـ وكان جفنه ما يزال يختلج ببطء ـ وجاسم ما يزال يبول دما ، والطبيب لا يجس يدا ملوثة لوجه الله ـ واقتحم ضباب اسود عينيه ـ لو كنت اعمى لوجدت عذرا فى التسول ٠٠ لو كنت اعمى ٠٠ ـ وتحرك ابهامه الايمن فى جيبه وزحف على ساقه يحكه ولكنه طواه الى راحته بسرعة وكأنه كان يخشى ان تنساب منه الدغدغة التى كان يحسها تنمل يده ٠٠ ـ ان ما احسه لم يكن تسلية ولا خطأ ـ ٠ ـ اشعر باطمئنان ان الامر يختلف ولا يشبه ما كان يحدث فى السابق ـ واغمض جفنيه قليلا ثم فتحهما ٠٠ ـ كانت امرأة سليمان بك حين تشعر بالضجر او حين تكون وحيدة تبعث على لاقوم بتسليتها ٠٠ فكنت اجلس القرفصاء وسط حجرة نومها على البساط الناعم وكانت تستلقى على سريرها ذى الاغطية الزاهية ٠٠ وكان ثوبها يكشف عن ساقين مصقولين وعن نهدين كرمانتين تتدليان من شجرتهما ٠ وكان يفوح منها عطر اخاذ اشعر بعد فترة انه يخدر حواسى كلها ٠٠ وكانت تطلب منى أن أحدثها عن أغرب ما صادفنى فى الحياة ، وعن الامنية التى اطمع فى تحقيقها ، وهل صادف ان احببت ،وما هى احاسيسى

تجـاه من احب ٠٠ والحديث الذى ساديره على لسانى اذا وجدتها فى خلوة وهل سأتردد فى اغتصابها ام اتركها تمضى مع عباءتها الصوف ٠٠ واذا صادف وجدتها تتحدث مع غيرى هل يفور دمى وابقر بطنها ؟ ٠٠ وكانت شفتاها الورديتان تفتران بـين حـين واخر عن عقـد من اللؤلؤ الوضاء ٠٠ كانت تجد لذة كبيرة حـين كنت اتلعثم او اتردد فى الابانة عن احاسيس لـم اكـن احسـن وصفها ، كنت يافعا انذاك ٠ وكان الدم يجرى قويا عارما فـى عروقى وكنت ابذل طاقة كبيرة فى كبـح ما كان يضطرم فى ٠٠ كنت ريفيا ساذجا اجهل تماما ايحاءات المدينة ودروبها المتشعبة الملتوية ٠٠ كنت احسـب ان امرأة سليمان بـك تثـق بى كأحد اخوتها وتسر كثيرا ان احدثها او اقوم بتسليتها فى اثناء تغيب سليمان بك عن الدار ٠٠

كنت اشعر فى الواقع ان الواجب يفرض على او ان الشهامـة تحتم على ان اقوم بحراسة شابة لطيفـة يغيـب عنها زوجها فى حفلات متواصلة وفى تسليتها ٠٠ الا اننى ، كما تأكد لى ذلـك ، كنت مخطئا او على جانب كبير من الغباء الابله ٠٠ فقد طردتنى امرأة سليمان بـك من خدمتها بأحتقار شديد ٠ ولكن كيف كان يمكن ان يفسر ان ما كانت تهبنى اياه من ثياب زوجها ، وطلبها الى ان اغتسل فى ا لحمام قبل ان اكون فى حضرتها هـو ليس من قبيل العطف او الشفقة ؟ ٠٠ ـ

وانتبه درويش الى اصابعه اليسرى التى كانت تضرب فخذه ضربات خفيفة سريعة كما لو انها كانت تضرب عى آلة عازفة ·· فرفعها ببطء ومسح بها وجهه ثم جعل يتلمس بها خده وشاربه ، وحصر شعرة بين اظفرين من اظافره وانتزعها بقوة فنظر اليها قليلا ودسها فى فمه ·· وكانت يده اليمنى ما تزال فى جيبه ، وكان ما يزال يحس بدغدغة تنمل يده فشد علبها بقوة ليتأكد من ان ما يحسه ليس وهما ·· وكان جفنه الايمن قد كف عن الارتعاش فأبعد عنه الشظية التى وضعها عليه ثم فرك عينيه وجعل يدلك جبينه المتغضن كمن يحاول ان يستعيد صورا قديمة هرأتها الاحداث ·· ما حدث لا يمكن ان يكون نوعا من التسلية·· او انه وقع خطأ عن غير قصد ·· فما زالت كفى تحتفظ بحرارة حقيقية ·· ـ

امرأة سليمان بك كانت تنشد التسلية وتجهر بها ·· ولكنى كنت غبيا ولست كذلك الان ·· الحرارة التى لامستها كفى لم تكن وهما ولا زيفا ـ واغمض عينيه قليلا ثم فتحهما ·· ـ الحوادث التى قمت بها بدور المسلى واضحة وصريحة ·· امرأة احمد بك كانت تنشد التسلية ايضا ولكنها تختلف عن التسلية التى كانت تنشدها امرأة سليمان بك ·· كانت امرأة سليمان بك لا تميل الى الصخب او الضجيج واقامة الحفلات الليلية المستمرة كأمرأة أحمد بك السيد الثانى الذى انتقلت الى

خدمتهم ٠٠ كان بهو قصرهم يضج فى كل ليلة تقريبا بشباب محفوف الوجنتين ، وبصبايا يرفلن بالحرير الناعم وتنط من صدورهن نهود كالفراخ المذعورة يفوح منهم جميعا عطر يغرق البهو كله بشذى مسكر ، وكانت الكؤوس تقرع بين ضحك مسترسل وهمس نشوان ، وكانت الموسيقى تترع الحاضرين بنشوة طاغية تجعلهم يدورون على وقعها فى ساحة البهو والاذرع العوارى تحتضن ظهور الشباب الهيمان،والنهود المذعورة ترتجف برقة ٠٠ وكانت امرأة احمد بك احيانا ، وحين تلعب الخمرة برأسها او حين تشعر بشىء من الرتابة لتكرر السهرة فى اغلب ايام الاسبوع تأمرنى ان ارتدى بعض الملابس الخاصة ٠٠ وان اشد وسطى فى شرشف واضع على رأسى طرطورا يصنعه لى بعض الحاضرين لارقص لهم رقصا غجريا كيفما اتفق ٠٠ فكانوا يتحلقون حولى ويصفقون ويغنون غناء ثقيلا يتعتعه السكر ٠٠ ولم اكن استطيع ان اقاوم ما تأمرنى به امرأة احمد بك ، فقد بدأت استفيد مما حدث لى مع امرأة سليمان بك ٠٠ بل اننى كنت اجد ما يغرينى بالبقاء رغم الامتهان الشديد الذى كنت احسه حين كانت تأمرنى بالرقص على ذلك النحو الوقح فقد كان يحدث ان اوصل احدى الفتيات من اللواتى كن يجئن بمفردهن الى دارها ، وفى الطريق ،وبعد حديث قصير مقتضب تنتهز فرصة منعطف مظلم بعض الشىء فتمسك بى وتقبلنى بحرقة وتعض شفتى رغم الرائحة النتنة التى كانت تنبعث منى

وكنت اجد فى عينها ، وانا فى غاية الانبهار ، انها على استعداد تام لان امتلكها ٠٠

ـ درويش ٠٠

وانتفض درويش بحركة آليـة كما لو انه قـد ضبـط وهـو يرتكب جرما لا اخلاقيا على مشهد من الناس ٠٠ فوقف والخجل الشديد يغوص بـه الى باطن الارض ، وقال بارتباك واضح :

ـ نعم عمى ٠٠
ـ عمك هنا ؟ ٠٠
ـ لا والله عمى ٠٠
ـ يرجع ؟
ـ ما ادرى والله عمى ٠٠
ـ ما خبرك ؟ ٠٠
ـ لا والله عمى ٠٠
ـ انت شلونك ؟
ـ الله يحفظك ٠٠ الله يخليك ٠٠ الله يطول عمرك ٠٠
ـ اشوفك دايخ ٠٠ اخاف مريض ٠٠
ـ لا والله عمى ٠٠ سلامتك ٠٠ ما بى شى ٠٠
ـ سلم على عمك ٠٠

ـ الله يسلمك عمى ٠٠

وجلس درويش على الكرسى المسند الى جـدار غرفة رئيسه وهو فى حالة اشبه بالذهول وكان رأسه ما يزال يدور٠٠ونظراته تتعثـر فى فراغ قاتم لا روح فيه ٠٠ ورفع يده اليسرى ومسح بها وجهه ، وكانت يده اليمنى ما تزال فى جيبه ، وكانت راحته ما تزال تنمل يده بدغدغة غريبة تكاد تكون وحشية وتثير فـى نفسه مزيجا من الانفعالات الغريبة ، وخنق آهة احس انها تمزق امعاءه ٠٠ وارتعشت شفتاه وانفرجتا عن اسنان نخرة سـوداء ٠٠٠ ـ كانوا ينشدون التسلية ٠٠ وكان يـراد منى ان اؤدى الدور بكل طاعة واتقان ، وهل يملك احـدنا ان يرفض طلـبا لسـيد ؟ ٠٠ ـ

وعـاد جفنه الايمن يختلج ولكنه لم يأبه لـه ولم يضع عليه شظية كما فعل قبل قليل ٠٠ ـ ان ما حدث فى هذا اليوم لم يكن تسلية فهو لا يشبه المجلس الذى كانت تهيؤه امرأة سليمان بـك ٠٠ ولا اللهو الذى كانت تغرق فيه امرأة احمد بك ٠٠ ان الامر يختلف تماما وليس فيه ما يشير الى ان السخريـة هى المقصودة ٠٠ الامر واضح تماما ولكن كيف استطيع ان اصدق انه كان عن خلـق حقيقى وتواضع طبيعى ولم يفتعـلا لامر ما ؟ ٠٠ لقـد وجدنا لكى نكون خدما للمترفين ٠٠ للذين يدرجون على بـلاط

مرمرى ٠٠ نمسح الاحذية وننحنى راكعين عند اول اشارة ونتقبل بخضوع مطلق السياط ، والاهانات والبصاق التى كانت تنصب علينا كهبة طبيعية ارصدت لنا منذ الازل ، وقبل ان نولد ٠٠ السنا عبيدا وهم السادة ؟ كان الشيخ محمود الذى كنت اعمل فى مزرعته قبل انتقالى الى الخدمة فى البيوت ، يسر كثيرا ويفحص الارض بقدميه طربا وانشراحا حين كان يجد احد اولاده يمسك بحذائه ويضربنى به على رأسى ووجهى ، وكان يصرخ فى ان انحنى اكثر الى الارض حتى امكن ولده المدلل ـ خلف ـ منى ، وكان يقول بفخر كبير والسعادة المطلقة تطبع اثارها على وجهه المجدور ـ ابن الوز عوام ، انه يتدرب منذ الان على اخضاع هؤلاء الاوباش الى اوامره ٠٠ الم يكن الشيخ محمود على حق ؟ ٠٠ السنا اوباشا ، الم يقدر لنا منذ الازل ان نكون من طبقة الاجراء ! نحرث أرض السادة ونلعق احذية المترفين ؟ ٠٠ ولم يكن السيد كامل ، مخدومى السابق ليختلف عن الشيخ محمود فى شىء كان يسر أيضا ، ويشعر بغبطة كبيرة حين كان ولده الصغير سعيد يمتطى ظهرى ويسوطنى على مؤخرتى بيده الوردية الرقيقة لازحف على الارض ، ولكن السيد كامل كان شفوقا بعض الشىء فقد كان يهبنى درهما ويغرينى بدرهم اخر اذا مكنت ولده المدلل من رغبته المتواضعة ، وهل هناك اسهل من ان اكون حمارا مدللا لطفل مدلل ؟ ٠٠ كل شىء حتم علينا ان نكون احمرة ، اوباشا عبيدا ٠٠ الطبيعة حين

سنت قانونها الازلى حددت فيه بشكل لا يقبل التأويل او الشك وضعنا الاجتماعى ٠٠ لقد بدأت اسمع منذ عدة سنوات من بعض الناس ومن بعض العارفين الذين يفهمون ما تنقله الاذاعات ان هناك شيئا ما يعمل لاجل العبيد ٠٠ كانوا يقولون لى اننا يجب ان نحطم القيود التى تشدنا الى قصور السادة ، وان نمزق السوط الذى ما يزال يلهب مؤخرتنا ٠٠ كلام كثير يشبه احلام الجائعين او الحكايات الخرافية التى كانت تقصها علينا عجائزنا المهدمات ٠٠ لقد علمتنى المصائب التى ما انفكت تحفر طريقها الينا ان اكون حذرا متخوفا شكوكا فى كل شىء وعلمتنى التجربة ان الفورة التى تحدث هنا هى فورة مؤقتة وخارجة عن نظامها المحدد لها ، اذ لا تلبث ان تموت ويعود كل شىء الى سابق عهده ، كالنهر ، فقد يحدث ويخرج فى القليل النادر عن خطه المرسوم فيهدد باكتساح كل شىء ولكنه لا يلبث ان يتطامن وينحسر خاسئا ليعود الى جريانه الهادىء ، وليس من المستبعد ان يكون ما حدث فى هذه المرة هو استمرار لما كان يحدث فى السابق ٠٠ رصاص ينطلق فى الفضاء كالمطر ٠٠ دبابات تجوب الشوارع ، كغول مخيف ٠٠ ورعود ضخمة تنطلق من الافواه والاذاعات كالسيل العارم ٠٠ حتى اذا هدأ كل شىء ومددنا ايدينا لنمسح الارض من دماء اولادنا ٠٠ لقد كان اولادنا الدمى التى يخترقها الرصاص ويقف عندها ٠٠ كان واجبهم الاول والاخير ، حماية الاخرين من الرصاص ٠ كانوا يصدقون

كل مـا يقال لهم ، فيندفعون كالمجانين يهيئون السياط لاسياد جدد ٠٠ حتى اذا مددنا ايدينا لنغسل دماءهم ، انهالت علينـا السياط التى اعددناها بأنفسنا تلسع وجوهنا ٠٠ ان الامـر اصبح بالنسبة الينا اشبه بالعادة ٠٠ لقد اعتـدنا هـذه الالوان الجديدة من الثياب الخادعة ولم تعـد تثير فينا تلك الدهشـة التى احدثتها فينا لاول مرة ٠٠ بل اننا لم نعد نميز بين الوميض الخادع والنور الحقيقى ولم نعد نحس بالانياب التى تنغرز فى لحومنا ٠٠ لقد قلت ذات يوم للطبيب وأنـا أحمل أليـه ولـدى جاسم للمرة العشرين ان الحبوب التى تأمر باعطائها له لم تفده فى شيء ، فالالم ما انفك يقطع امعاءه ٠ والدم ما يزال يلـوث برازه ٠٠ فكشر قليلا ثم قال ، ان ابنك قد اعتاد هذه الحبوب ولم تعد تؤثر فيه ٠٠ انه لم يجسه ، ومن حقه ان يفعل ذلك ٠ اذ كيف يصح ان يلوث يده دون مقابل ؟ ٠٠ لقد اكد على اكثـر من مرة ان اجيء به الى عيادته الخاصة حتى يتمكن من فحصـه بدقة ، وكنت اعذره فى اعماقى ، اذ كيف يتسنى لانسان مثلـه ان يتصور ان احدا من الناس لا يملك ما يملأ به معدته ؟٠٠٠

وشعر درويش ان شيئا يوخز قلـبه ، وان ظلاما يخيـم على الرواق كله فلا يرى ما هو امامه ، فهز رأسه قليلا لينفض عنـه هذه الخواطر والصور التى كان يشعر انها تمزق امعاءه ٠٠٠ وفرك عينيه بسبابته وابهامه الايسرين ٠ وحين فتحهما خيـل اليه ان الجدار الذى امامه يميل الى الخلف ويكاد يهوى، فأغمض

عينيه ثانية وجعل ينفض رأسه بشدة ، وحين فتحهما كان الجدار ما يزال يتداعى فأنتصب واقفا وراح يعصر جبينه بأصابعه ٠٠ ـ اى يوم هذا ٠٠ لو ان شيئا يحدث ـ وارتعشت شفته السفلى فصك عليها اسنانه ، وتمنى بأنسحاق لو انه قطع كفه اليمنى ورمى بها ، قد يتخلص من تلك الحرارة التى ما انفكت تلهب رأسه ٠٠ ـ قد تكون وهما او تصورا ٠٠ ان رأسى اليوم غريب ٠٠ ان كل شىء فى غريب ـ وادار لسانه فى حلقه ثم اخرجه ليرطب به شفتيه ٠٠ كان جافا ـ حتى البصاق لا نملكه ـ قذف وجهه مرة الشيخ محمود ببصاق غطى وجهه كله ٠٠ ـ لم اعد اذكر السبب ٠٠ بل لم يكن هناك من سبب سوى ان مزاجه كان رائقا ، ومن عادة الشيخ محمود أن يبصق فى وجوه عبيده ـ اذا كان مزاجه رائقا ـ وانغرزت اسنانه فى شفته السفلى كان يشعر بألم وحشى لم يسبق ان واجه مثله رغم كل ما مر به ٠٠ ـ فقط لو تأكدت من صدق ما حدث ـ وانساح شىء فيه ـ ان احساسى وحده لا يكفى ٠ اريد شيئا عمليا ـ وراح يدلف فى الرواق الضيق المظلم قليلا حتى وصل الى غرفة احد الموظفين وما كاد يراه زميله عباس حتى ابتسم له وطلب منه سيكارة ٠٠ وتذكر درويش انه لم يمص نفسا طوال هذه المدة ٠٠ وعزى كل ما كان يعانيه من دوار فى رأسه وزوغان فى بصره الى السيكارة التى لم تخطر بباله ، فأخرج علبة سكائره واعطى واحدة الى زميله عباس ووضع اخرى بين شفتيه ، ومص نفسا

عميقا حتى خيل اليه ان دخانها يصل باطن قدمه ٠٠ وحين استدار ليعود الى كرسيه ، وجد انه يحملق فى راحته اليمنى بالحاح عنيد ، وكاد يصعق حين لم يجد فيها الشقوق واثار الحروق ٠٠ كانت تبدو طرية ناعمة كما بسطها الى العرافة فى الماضى البعيد ٠ ووجد ان سبابته اليسرى تزحف ببطء على الخط الذى ينحدر منحنيا من أعلى راحته ويلتصق بخط الوسط التصاقا مباشرا ٠٠ ــ اتكون العرافة قد صدقت فى النهاية ٠ ؟ يخال لى ان الامر جد فى هذه المرة ــ واجتاحته مشاعر قاسية الى حد الايذاء القاسى ، وانثنت اصابعه اليمنى تحك باطن كفه فضغط عليها بقوة ،ان الحرارة ما زالت تنبعث منها وتثير فيه مشاعر غريبة ، واحس بحنان ان يده اليمنى الصق به واقرب اليه من اى شىء اخر ــ ما حدث لها فى هذا اليوم لم يكن هزوا ولا سخرية ٠٠ ان الامر جد ــ واعتصره حنان وحشى ، وتمنى بعنف لو انه قبل اليد التى باركت يده واعادت لها نضارتها ٠٠ وكانت تملأ راحته ولكنه لم يكن يحس بها على الاطلاق٠٠ كان ما يزال يراها طرية ناعمة كما بسطها الى العرافة ــ ما حدث لم يكن وهما ولا خيالا فما زالت كفى تحتضن حرارة حقيقية ، وما زالت الطراوة تسيح منها كعطر زهرة لا يزول ٠٠ ــ ــ هل يمكن لاحدنا ان يصدق ان القيد قد تحطم حقا لا وهما ــ وجلس على كرسيه وهو اشبه ما يكون بشجرة نخرة تعبث بها ريح صر ٠٠ ولم يتمالك

نفسه فرفع راحته ووضعها على شفتيه ٠٠ كان عبقها قويا يملأ انفه ورئتيه ـ حتى وان كان الامر حدث عرضا او عن طريق الصدفة ، الا انه حدث فى الواقع وليس من الصعب ان اوهم نفسى انه كان عن شعور صادق وطبع لا زيف فيه ـ وانتفض شيء فيه ٠٠ كان يدرك تماما ان الصراع الذى يجرى فى داخله ليس اعتياديا ولم يسبق له ان قاساه بالعنف الذى يحسه الان٠٠

ـ يكفى اننى شاهدت الصنم يتحطم ويهوى ـ ٠

ـ درويش نايم ؟ ٠

ورفع نظره الى زميليه عباس ومحمد اللذين كانا يقفان امامه ٠٠

ـ يظهر تعبان ؟ ٠٠

ولم يجبهما ، وراح يحدق اليهما بأستغراب ، ان ما حدث له حدث لهما ايضا فكيف لم يثر فيهما الخواطر والانفعالات التى ظلت تعصف به طيلة هذه المدة ؟٠٠ ايكون اعتيادهما للاحداث التى مرت بهم جميعا قد خلق فيهما مثل هذه اللا ابالية القاسية فلم يعودوا يحسان بأى انفعال حتى بالنسبة الى المواقف الخاصة

مهما كانت صادقة وقوية ، ام انهما يشعران مثله ان ما حدث هو أضخم من أن يتناولاه بحديث عابر ؟ ٠٠ كان يحدق فيهما صامتا ويحاول ان يسبر غوريهما عله يقف على حقيقة مشاعرهما ٠٠٠ وانفرجت شفتاه دونما ارادة منه عن بسمة شائهة وقال له عباس:

ـ عمك يرجع ؟

وارتعشت شفتا درويش وتمتمتا بذهول :

ـ ما ادرى ٠٠

ـ ماذا تنتظر الدوام انتهى

وكان الموظفون قد بدأوا بالانصراف ونهض بصمت وراح يجر ساقيه ببطء كما لو أن شيئا يمنعه من الذهاب ٠٠ كان يحس ان شيئا ما يشده الى الجلوس على كرسيه والبقاء صامتا ، كانت به رغبة قوية تدفعه الى تدقيق ما مر به صورة صورة ٠٠ واحس ان صلاة حارة تنبعث منه وتبارك حياته رغم عنفها وقساوتها ٠٠

ولقد ظل درويش ساهما لا يجد اية رغبة تدفعه الى الكلام

مع عباس ٠٠ انه لا يدرى لم ظل عباس ساكتا طيلة مدة وجوده فى محل عملهما ولم يشر الى ما حدث ولو بصورة عابرة كما راح يفعل وهما فى طريقهما الى كوخيهما ٠٠ اكان هو الاخر يستعرض وقائع حياته جزءا جزءا ولم يمهله لحظة واحدة سوى تلك الهنيهة التى احس فيها بحاجته الى دخان يملا به رئتيه فطلب منه سيكارة ؟ ان الامر واضح لديه الان فتركه يطنب فى وصف ما حدث دون ان يتدخل فى مشاعره او يحد من غلوائه ٠ فهو يعلم تماما ان الامر يدعو الى اكثر من الفرح العادى ، ولكن المرارة التى كانت تلوث دمه اخمدت فيه شعور الكبرياء الذى كان يلازم عباس ٠٠ ان الجراح التى تنزف منه قد حدت من شعور الاندفاع فيه فلم يعد يغرق الى اذنيه فى فرح يتكشف له فى النهاية عن مأساة دامية ٠٠ ولم يعد يصفق لافواه تهدر بوعود راقصة جردها الواقع الرتيب من الزيف الذى كانت تتستر به ٠٠ قد يكون ما حدث انما حدث عن صدق وايمان ويعد بادرة طيبة ويعطى مدلولا كبيرا بالنسبة لما يحدث فى المستقبل ٠ وصحيح انهم لم يواجهوا فى جميع ادوار حياتهم سوى النظرة الشزراء والاشارة الوقحة المتوارثة ولم يسبق لاحدهم ان صافحه احد من اولئك الذين يشعرون انهم من طبقة النبلاء ، او احد من الرؤساء على تعددهم وكثرة ما فاهو به من وعود ، كما فعل صباح هذا اليوم مسؤولهم الجديد ٠٠ وصحيح انه كان يبدو طبيعيا جدا ومتواضعا جدا وبسيطا الى ابعد حدود البساطة ، وانه كان يحدثهم

ويحاورهم بكلام رقيق كما لو انهم من خلطائه ولكن ذلك لا يغريه ابدا بالتطاول الى حد يتخيل معه انه يدحرج القمر بين قدميه وينثر اللالىء على الخربة التى يسكنها ·· لقد ملئت اذناه بوعود اشد حلاوة من العسل ولكن طفله ظل يبول دما حتى لم يعد يفيده الدواء ·· انه لا يريد للغناء الذى يحاوله ان يتحول الى نواح وعويل ·· ولكنه لم يمنع زميله عباس من التحليق مع الوعود والامال الى اخر حدودها ما دام يحس بصدق ان شيئا كبيرا قد حدث ··

وكانا قد وصلا الى مفترق الطريق الذى يؤدى الى كوخ درويش فوقفا لحظة ثم ودعه عباس وانصرف ·

وقبل ان يمد درويش قدمه ليسير رفع عينيه الى اعلى يمد نظره فى الفضاء اللامتناهى·

كانت قطع الغيوم تركض فى السماء كما لو ان نغما قويا يحدوها الى افق معين ·· كانت تبدو ككتل من الثلج الناصع البياض تعوم فى بحر رائع الزرقة·· وكان درويش يحلق فيها كمن يحاول ان يبحث عن شىء لا يدرى ما هو ولكنه يحسه بقوة ·· وضغط على نفسه بعنف ليمنع شعورا كان يدوم فيها ··· ان ولده ما زال يبول دما ·· وزوجه ما زالت تلعق فضلات السادة

٠٠ ان الغناء الذى يحسه يصارع كآبته لم يحن وقته بعد ، فهو لا يريد له ان يتحول الى شبح مبحوح ٠٠ وكانت راحته اليمنى ما تزال تخدر يده بدغدغة حنون ٠٠ وتمنى بانسحاق لو انه بتر كفه ورمى بها بعيدا فلم يعد يطيق هذا العذاب الجديد ولم يعد يطيق مقاومة الاندفاع الذى يحسه يصطخب فيه فرفعها الى عينيه وراح يتعقب الخط الذى ينحدر من اعلى كفه ثم غطى بها وجهه ، ومن خلال أصابعه كانت تلوح دمعة شائهة ٠٠

وما كاد درويش يمد قدمه ليسير حتى بدأت السماء تنث مطرا خفيفا أشبه بالرذاذ الذى تحدثه الامواج المتلاطمة وتدفع به الى مسافات بعيدة ٠٠٠

الرغبة المغلولة

كـــان ـ حســـن ـ يشعر بفرح غريب يملأ جوانحـه كلها ويجعله يعدو مع رفاقه بخفة ورشاقة كفراشة تنشر جناحيها الرقيقين لاشعة الفجر الطرية فتعكس الوانها الرائعة وهي تنتقل من زهرة الى زهرة ٠٠ كان يروح ويجيء بحركة دائبة ونشاط جـم وقلبه يخفق في حناياه خفوقا لم يعهده فيه من قبل ، بل لا يذكر ان جسده ارتعش في يوم كما يرتعش الان فيجعله يتعثـر في خطواته رغم ما كان يشيع فيه من بهجة طاغية ، حتى انه كاد يسقط اكثر من مرة وهو في طريقه الى فناء الدار ليضع فيـه الطابوق الذي كان يحمله على ظهره٠٠ ولو لم يسرع اليه صديقه ـ صـــبري ـ ويمسكه في احدى تلك المرات لانكفأ على وجهه ٠٠ لقد اسرع اليه ووضع يده على كتفه وقال :

ـ انتبـه ٠٠ انك ســتقع

فنظر اليه ـ حسيـن ـ بعذوبة ثم ابتسم لـه برقة دون ان

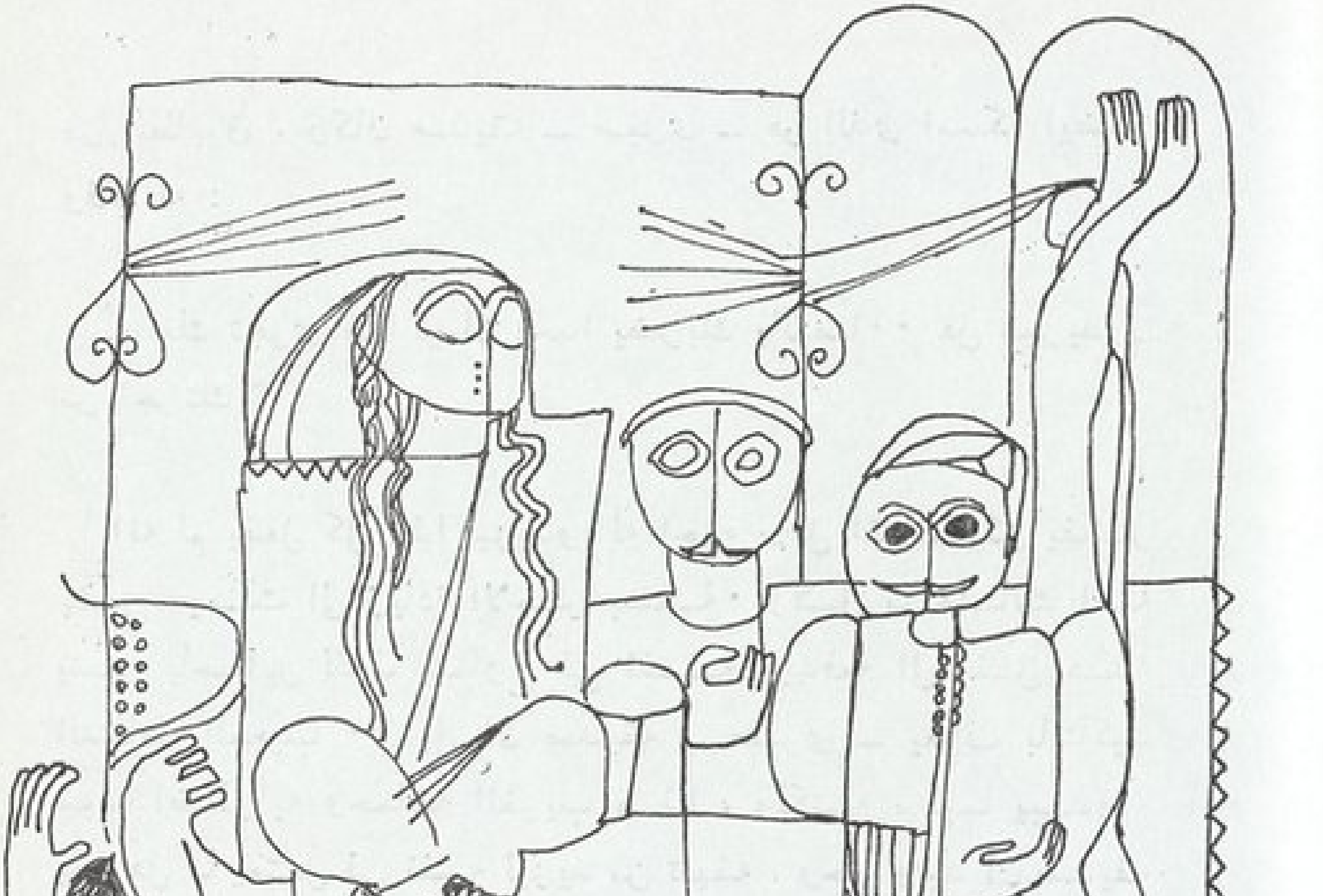
يفتح فمه بكلمة وانتظم مع صحبه ينشد بأعلى صوته ـ لاخذ بنية من بنات السلطان ٠٠ العين سودة والحواجب كيطان ـ ٠

وكان صوت الاسطى ـ حميد ـ يرتفع بين الحين والاخر وينادى بأعلى صوته ـ اول ٠٠ اول ـ فيتزاحم العمال فيما بينهم ليضعوا فى اول الجدار ما يحملون من طابوق وجص، ثم يعودون ويسابقون عسى ان يحظى احدهم برضى الاسطى ـ حميد ـ فيخصه بشيء من الثناء او ليقع عليه اختياره عند حدوث عمل جديد ، ومع ذلك فأن الاسطى ـ حميد ـ كثيرا ما كان يغضب على بعضهم بدون سبب فيضرب أحدهم بحفنة الجص التى فى يده او بما هو ملقى الى جانبه ٠

ولقد استطاع ـ حسن ـ ان يحظى فى ذلك اليوم من الاسطى ـ حميد ـ بأبتسامة مشجعة الهبت الحماس فيه فراح يضاعف من عدد الطابوق الذى يحمله بل راح يتيه على صحبه ويطلب منهم ان يحملوا عشر طابوقات كما يفعل هو ، لا تلك الطابوقات الخمس التى يستطيع ان يحملها بيد واحدة ٠٠

ـ ما بك اليوم ؟ ٠

كاد ـ حسن ـ يسقط للمرة الثانية وهو يحمل ذلك العدد



العين سوده

من الطابوق ، وكان صديقه ـ صبرى ـ هو الذى امسكه ايضا وقال له :

ـ انك تجرى كما لو ان احدا يضربك بالعصا٠٠ هل سيزيدون من اجرتك ؟

انه لم يفعل كل هذا ليزيدوا له اجره ، بل انه لم يكن يفكر بشيىء يمت الى زيادة الاجر بصلة٠ وكل ما هنالك انه يشعر بأحساس لذيذ يتماوج فى نفسه ويدفعه الى مثل هذا النشاط العجيب ٠٠ بل ان صديقه ـ صبرى ـ يعرف بالتأكيد سبب اضطرابه وحماسه الغريب هذا ، ولكنه ، فيما يبدو ، يتجاهل ما يعتمل فى نفسه ليزيد من تلهفه ، وحين وجد أن صديقه ـ صبرى ـ قد ابتعد عنه قليلا لحق به وقال له بهمس وكأنه يخشى ان يسمعه احد :

ـ صبرى ٠٠ هل ستذهب اليوم ايضا ؟٠٠

وادرك صبرى ما يعنيه صديقه فقال :

ـ اذن انت مضطرب اليوم لهذا السبب ٠٠

واكد عليه ـ حسن ـ واللهفة تكاد تخرجه عن طوره :

ـ هل ستذهب اليوم ايضا ؟ ٠٠

ـ لا شك انك ستأتى معى ٠٠

ـ اهى حقا اكثر جمالا من هذا الطابوق ؟

ـ لو انك رأيتها والحمرة تشع منها ٠٠

وقبل ان يتم ـ صبـرى ـ كلامه وجد ـ حسـن ـ ان لعابـه يتجمع فى حلقه ويدور فجعل يبتلع ريقه على دفعات ويتلمظ كما لو أنه فرغ توا من طعام شهى ٠٠

ـ انها لذيذة ٠٠ اليس كذلك ؟

ـ جـــــدا ٠٠

ثـم اخذ ـ صبرى ـ يتمطق بدوره ليزيد من شهية ـ حسن ـ ولكن هذا تركه دون ان يضيف شيئا اخـر وراح يعـدو بحماس شديد وهو يحمل الطابوق على ظهره وينشد بأعلى صوته ـ لاخذ بنية من بنات السلطان ـ ٠٠

كانـت الشمس قد توسطت كبد السماء معلنة انتصاف النهار وبأشارة من الاسطى ـ حميد ـ القى كل واحد ما فى يده وذهبوا جميعا ليغسلوا فى الحوض ايديهم من الجص والطـين الى حـد الرسغ ويتناولوا ما جاء بـه اهلوهم من طعام ٠

كان ـ حسن ـ يجلس القرفصاء ٠ وكانت امه مولية ظهرها الى العمال الذين كانوا يتناولون غذاءهم الى جانب ذويهم الذين

اعتادوا احضار الطعام الى من يعمل منهم،وكانت تحجب جانبا من وجهها بعباءتها الصوف الخشنة وقد فرشت على الارض خرقة بالية وضعت عليها قليلا من التمر ورغيفا من الخبز ٠٠ فجعل ـ حسن ـ يقضم شيئا من الخبز البائت وامان عذاب كانت تغنى فيه تنحر ببطء وقسوة ٠٠ فلقد تلاشت البهجة التى ظلت تمور فى اعماقه وتجعله يبدو سعيدا كفراشة تنتقل من زهرة الى زهرة ٠٠ كان يشعر فى تلك اللحظة كما لو ان احدا سلب منه امله الوحيد وتركه يرى امه ثانية والسائل اللزج يسيل من عينيها حتى انتصبت امامه صورتها وهى تنفخ فى القش الرطب صباح ذلك اليوم لتعمل له الشاى٠٠ فلقد بددت الصورة هذه كل ما كان يحسه من سعادة وبهجة وجعلته يغرق فى خيبة مريرة تقطر سما وكآبة ٠٠ وادرك تماما الحلم الذى كان يلون احاسيسه بمشاعر غريبة يبتر بقسوة فسوف لن يكون بأمكانه الذهاب مع صاحبه ـ صبرى ـ ويتناول واياه ـ بورك الحلبى ـ ذلك البورك الذى ما انفك ـ صبرى ـ يصفه له كل يوم تقريبا ويبالغ فى الوصف ولا يتركه الا بعد ان يجد اللعاب يتجمع فى حلقه ٠٠ بل انه كثيرا ما كان يغريه بالذهاب معه ويتناول واياه هذا البورك الشهى :

ـ بورك الحبلى ٠٠ ما اطيبه ٠٠ ـ

ـ هل صحيح انك لم تذق بعد بورك الحلبى ؟ ـ

ـ بورك الحلبلى ٠٠ انه طعام السادة الكبار ـ

ولكن كيف ٠٠ كيف يستطيع الحصول على هذا البورك العجيب ٠٠ هذا الشيء الذى كان يتراءى له كشبح بعيد المنال ٠٠ كيف؟ ٠٠ ان امه لا تعطيه من الدراهم الثلاثة التى يحصل عليها في نهاية اليوم سوى عشرة فلوس يذهب بها رأسا الى بائع الباقلاء او ليشترى بها ـ حلاوة ـ بل ان امه كثيرا ما كانت تبخل عليه بهذا المبلغ الزهيد بحجة انها ستضيف الى العشرة فلوس مبلغا اخر وتشترى شيئا لفطوره ٠٠ فمن اين يأتى بثمن البورك الذى يزيد على الخمسين فلسا كما اكد له صديقه ـ صبرى ـ اكثر من مرة ؟ ٠ من اين يأتى بمثل هذا المبلغ الجسيم وكيف يستطيع ان يرد عنه هذا التلهف الى ذلك البورك الذى يكاد يكون جزءا من الحلم الذى بدأ يراوده كل ليلة تقريبا ٠٠ فما ان اخذه معه ـ صبرى ـ فى احدى المرات ورأه كيف يتلذذ ويتلمظ وهو يلتهم اللقم بطيئا حتى وجد لعابه يسيل من احدى زاويتى فمه دونما ارادة منه فلم يطق ما كان يستعر فيه فمسح لعابه بكمه ثم تركه هاربا ليقاسى عذابا يهرس امعاءه بضراوة قاتلة ٠٠٠٠

ومنذ ذلك الحين بدأت الاحلام تجسد له ما كان يصبو الى تحقيقه ٠٠ فكثيرا ما كان يرى نفسه يتأبط ذراع صديقه ـ صبرى ـ ويعدوان بنشوة بالغة الى دكان ـ الحلبلى ـ وتضغط راحته على درهمين لا يدرى من دسهما فيها ، او يرى نفسه جالسا

وسط الدكان والنشوة تكاد تفقده صوابه، فيومىء للنادل كما يفعل صديقه ـ صبرى ـ بشىء كثير من الزهو ويأمره دون مبالاة ان يأتيه بالبورك ، او يعدو متهللا ويحتضن البورك ملفوفا بورق نظيف ليضعه امام امه واخته ٠٠ حتى اذا ما استيقظ ووجد نفسه داخل ذلك الكوخ المظلم ، وامه تغط فى نومها وتلتحف عباءتها السوداء الممزقة ،واخته الى جانبها تكاد تكون عارية ، شعر بيد قاسية تمتد لتقطع شرايينه ثم لا تلبث أن يشعر بالغيظ يملأ قلبه على صديقه ـ صبرى ـويود لو أنه يبطش به ، هذا الذى يتمتع ببورك الحلبلى وحده، ثم لا يكتفى بذلك فيروح يصف اللذة التى لا تبرح لسانه بشىء كثير من المبالغة ويجعل لعابه يتجمع فى حلقه٠٠ اجل ، انه يعلم تماما كيف يستطيع ـصبرى ـ ان يذهب الى الحلبلى ويتلذذ ببوركه ، فأن اباه ما زال حيا يأتيهم كل يوم بما يحتاجون ، وله ايضا اخ يعمل نجارا ويحصل على مورد جيد ، اما هو ، فأن عينيه لم تكتحلا بمرأى ابيه فقد مات وهو ما زال طفلا يحبو بمرض قيل عنه انه خطير ، وامه نصف عمياء لا تكاد ترى شيئا ولا تحسن القيام بشىء ، وقد حاولت مرة ان تعمل خادما فى احد البيوت ولكنها طردت منذ اليوم الاول من عملهما بعد أن عثرت بمدفئة كانت موضوعة وسط الغرفة فاندلق الزيت وكادت تحرق ابنة صاحب البيت ٠٠ وليس له اخوة سوى اخت تصغره بسنة واحدة تشكو هى الاخرى من عرج فى ساقها اليمنى ٠٠ ولقد رأى بعينيه كيف انهم كانوا يبيتون جائعين حين

لم يكن هناك عمل ، وكيف كان يخرج فى الغبش والبرد القارص يجمد الدم فى العروق يبحث عن عمل دون جدوى وحين وجد عملا لدى الاسطى ـ حميد ـ بعد ان قصدت امه داره وقبلت رأسه وبكت بين يديه ، راح ـ حسن ـ يسرع الى امه فى الغروب ويضع فى يدها اجره اليومى ٠٠ اجل ، ان بأمكان ـ صبرى ـ وغيره من ـ المترفين ـ ان يتناولوا من ـ بورك الحلبلى ـ اما هو فأنى له ذلك وقد آلى على نفسه الا يكذب على امه او يأخذ منها فلسا واحدا دون علمها ٠٠ بل انه لم يجرأ ان يتفوه برغبته هذه امامها ٠ فكيف يعمل ليخمد اللهفة التى تستعر فيه و ـ صبرى ـ ما انفك يجعل لعابه يدور فى حلقه كل يوم تقريبا ٠٠ بل كيف يعمل ليرد عنه طيف ـ البورك ـ الذى كان يستحوذ على احاسيسه كلها ويمنع عنه النوم ويجعله حزينا كئيبا وحين وجد انه لم يعد قادرا على تحمل ما كان يمور فى نفسه بدأت الافكار تتوارد عليه وتحثه على ارتكاب عمل ما كان يظن انه يقتحم رأسه فى يوم من الايام ٠٠ فماذا يحدث مثلا لو انه ابقى لنفسه درهما واحدا من الدراهم الثلاثة ، درهما فقط ثم يعدو الى صديقه ـ صبرى ـ ويطلب منه بشموخ ان يرافقه الى دكان ـ الحلبلى ـ ولو لمرة واحدة فقط وبذلك يستطيع ان يوقف هذه الرؤى التى ما انفكت تعذبه وتقض مضجعه عند حدها ولا يجعلها تقترب منه ثانية ٠٠

ولقد تمكنت منه هذه الفكرة واستحوذت على حواسه حتى انه لم يعد يرى غيرها ٠٠ ماذا ؟ ان امه ستثور وتلعنه ، وماذا فى

ذلك ان ـ بورك الحلبلى ـ جدير بهذه المغامرة ٠٠ ماذا ايضا انها قد تشكوه الى الاسطى ـحميدـ فيضربه ، ولكن ـبورك الحلبلىـ سينسيه كل شيء ٠ ٠ان ما سيناله من عقاب لا يعد شيئا الى جانب اللذة التى سيشعر بها وهو يلتهم ـبورك الحلبلىـ٠٠ ولقد جعلته هذه الاحاسيس يبدو كفراشة تنشر جناحيها الملونين فى اشـــعة الفجر الطرية وتمده بسعادة كبيرة ٠٠

وانتبه ـ حسن ـ فجأة على صوت امه الواهن وهى تسأله عن المدة التى تستغرقها بناء الدار هذه ، كانت تخشى ان يفرغ من بنائها ويحرم ولدها من العمل ، فطمأنها بأن الاسطى ـ حميد ـ قد تعاقد على بناء دار اخرى ٠ كان يقول لها ذلك دون ان يرفع اليها نظره يتناول طعامه بحزن قاتل ٠٠ وبين الحين والحــــين يختلس النظر الى فوطتها التى كانت تريد أن تستبدلها بأخرى جديدة منذ ستة أشهر ولكنها لم تستطع ٠ ٠كان يشعر أن الامل الذى كان يخفق بين جوانحه فيهبه الحيوية والنشاط قد توارى الى الابد، بل ان شعورا مباغتا هبط عليه فجأة جعله يحنق عــلى الحلبلى ـ نفسه وبوركه الذى لا يمكن ان يكون بأحسن من هذا الرغيف الذى يتناوله الان ٠٠ ثم ماذا يستطيـــع ان يفعــل ـ بورك الحلبلى ـ بعد كل شيء ؟٠٠ لا شيء انه لا اكثر من عجين يقلى وقد يمرض المعدة ٠٠ وحتى اذا ترك العنــان لخيالــه وراح

يتوهم اللذة التى يتركها فى الفم ، كما يبالغ فى وصفها صبرى فأن اللذة هذه سرعان ما يغسلها اللعاب وكأنها لم تكـن ٠٠ فأى شيىء فى ذلك ؟ ٠٠ اما هذا الرغيف فأن مذاقه اللذيـذ يتجـدد باستمرار ٠٠

وحدد نظره فى فوطة امه وقال :

ـ قلت انك ستشترين فوطة ؟

فجعلت الام ترمش بأهدابها اللزجة وكأنها تريـد ان تـرى ولدها اكثر مما تفعل ٠٠ وقالت :

ـ الفوطة !٠٠ اهى شيىء ضرورى اكثر من الخبز يا ولدى ؟

لم يجبها ـ حسن ـ فأن فترة الغداء قد انتهت ، وهـا هـو ذا الاسطى يناديهم بأعلى صوته :

ـ يا الله يا ولد ٠٠ يا الله يا ولد ٠٠

فقام والالم يضفى على وجهه شحوبا قاسيا وانضم بتثاقـل الى رفاقه الذين استأنفوا عملهم وراحوا ينشدون ـ لاخذ بنية من

بنات السلطان ·· العين سودة والحواجب كيطان ـ

الا انه ما عاد يشاركهم حماسهم ·· لقد هدأ كل شيىء فى نفسه وما عاد يشعر بتلك النشوة التى كانت تدفعه الى ذلك النشاط العجيب ·· فوقف يضع الطابوق واحدة فوق اخرى ونظراته مسمرة فى شبح امه الذى بدأ يتوارى عنه شيئا فشيئا ·· كان ينظر بصمت عميق ، وظلام مرعب يقتحم قلبه وينتشر فيه ·· وفجأة شق اذنه صوت ـ صبرى ـ وهو ينشد بمرح

ـ العين سوده والحواجب كيطان ـ ·· ثم اردف بخفوت :

ـ هل تسمع ·· العين سوده ·· اما الحواجب ·· الله يا عينى
ثم قرب فمه وهمس فى اذنه :

ـيا عينى على بورك الحلبلى ·· هل ستأتى معى ؟

ولكن ـ حسن ـ لم يجبه ، ولم يلتفت اليه ·· واستطاع صبرى أن يلمح بضع قطرات من الدمع كانت تلوب فى عينيه ···

حكاية

... ولم تطق سميراميس الغضة البضة ذات الجمال الرائع ، فظائع زوجها الملك ـ نينوس ـ الذى كان يأمر بسلخ جلود الشبان وهم احياء ، وارغام الرجال ان ياكلوا لحوم ابنائهم وبناتهم . ودفعتها كراهيتها له الى التخلص منه وتخليص البلاد من شره..وحين جلست سميراميس ، التي اظلتها الحمائم وسقينها الحليب من مناقيرهن قطرة قطرة ، على عرش نينوى اثبتت انها قد أصبحت فى بابل واشور اكثر قسوة من كل طغاة بابل واشور ..

حمل الجد حفيده على كتفيه ودلف صامتا ليذهب به الى سريره فى الطابق الثانى . ولم يحاول ابو الولد او امه ان يقولا شيئا ، فقد كان يخيم عليهما صمت مسموم اثر ملاسنة حادة تبادلا خلالها الكثير من الالفاظ المهترئة .. وارتقى الجد الدرج ببطء دون ان يلقى عليهما تحية المساء .. وكان صدى التهارش الكئيب يلطخ بقايا نقط ثلجية كانت تلمع فى ثنايا الصبى الوردية فاخلده الى سهوم قلق فلم يفطن الى انه لم يقبل

احدا من ابويه كما اعتاد ان يفعل الا حين هم جده بوضعه فـي سريره ، فغمغم خجـــلا :

ـ ولكنى لم اقبلهما ؟ ..

ـ من الافضل ان تنام .. فما كانا ليلتفتا اليك لو فعلت ..

وحاول الجد ان ينيمه ويسحب عليه الغطاء ، الا ان الصبـى تمتم ثـانية :

ـ ولكنى لا احس بالنعاس .. ؟
ـ اغمض عينيك فيجيئك النوم ..
ـ اتشعر بالحزن يا جدى ! ..
ـ قليـــــلا ..
ـ وهل تنام سريعا اذا كنت حزينا ؟ ..
ـ احيانا اظل يقظا ..
ـ واى شىء تصنع ؟
ـ لا شىء ..
ـ تفكر فى الشىء الذى جعلك حزينا ؟
ـ ربمـا ..
ـ وتظل يقظا تفكر فيه ؟ ..

ـ وما انت ومثل هذه الامور ! ٠

ـ لانى اظل يقظا حين اشعر بالحزن وافكر ٠٠

ـ كيف ؟ ٠٠٠

ـ بعد ان تطفىء النور ويعلو شخيرك ، افتح عينى فى الظلام واردد مع نفسى لماذا هذا العراك المستمر بين ابى وامى ، او بينه وبين من يأتى الينا ٠٠ الا يمكن ان يتحدثوا بهدوء !٠

ـ لا ٠٠

ـ لماذا ؟ ٠٠

وتراجع الجد قليلا وخطا نحو النافذة وراح يمد بصره عبر سور الحديقة ٠ ٠كانت السماء نقية يخالط صفاءها العميق ظلال داكنة تنشها باحتضار الشمس الافلة٠٠وكانت العصافير تزقزق فى اعالى الاشجار وكأنها تطارد النهار المنهزم بلعناتها الابدية ٠٠ وعاد الصبى مستفهما :

ـ ولكن لم تقل لى ،لماذا لا يتحدث ابى وامى واقاربى بهدوء ؟

فقال الجد ونظره ما زال مسمرا فى الافق الحزين :

ـ لانهم لا يستطيعون ذلك ! ٠٠

ـ لماذا لا يستطيعون ؟ ٠٠

وغاص الجد فى أعماقه وراح ينقب عن خاطرة فيها شيىء من براءة ولكنه تمتم :

ـ لاننا ظللنا نختزل الحياة حتى لم نبق منها شيئا ، فغدونا لا اكثر من هياكل مفزعة تلهث فى الظلام بألفاظ ميتة ٠٠

ـ هياكل مفزعة تلهث فى الظلام ٠٠ لا اكاد افهم ما تقول ٠٠
ـ ستفهم اذا مد الله فى عمرك ، فأنت ولد ذكي ، اما الان فالى النوم ٠٠
ـ ولكننى قلت لك لا احس بالنعاس ٠٠ ثم ان الشمس ما زالت تضىء ٠٠
ـ ليس فى سمائنا شمس ٠٠ تخلت عنا منذ أمد بعيد يا ولدى
ـ ولكنها ما زالت تشع ٠٠
ـ بحكم الرتابة المفروضة عليها ٠٠ اما احساسنا بها فقد مات منذ مئات السنين ٠

واحس الصبى بأضطراب مبهم ولكنه لذيذ ، فلم يسبق لجده ان حدثه بألفاظ كبيرة كالتى يرددها الان ٠٠ فملأه الزهو وخيل اليه انه يستحيل في لحظة الى رجل كبير ٠٠ وكان الصمت ما زال يلقى بثقله المخيف على الدار فلا يسمع غير حركة سريعة يأتى بها الاب او الام وهما يقلبان ما فى ايديهما من مجلات قديمة ٠٠ وكان الظلام فى تلك الاثناء يمزق الخيط الاخير المتبقى من وهج الشمس ٠ وبزغت بضع نجيمات تتلألأ فى الافق البعيد ٠٠ ومد الجد يده الى زر النور فاضاءه ، وقال بما يشبه الهمس :
ـ والان فأن الوقت قد حان ٠٠
وانفرجت شفتا الصبى عن بسمة طفولية حنونة وتمتم :

ـ قبل ان تحكى لى حكاية ؟ ..

ـ لم تبق حكاية واحدة لم اردها بضع مرات .. لقد استنفذتها كلها .. واتسعت بسمة الصبى وقال بدلال محبب يلجأ اليه فى الحالات التى يشعر فيها ان جده منصرف عنه او انه مهموم لا يطيق الاشارة العابرة :

ـ ومع ذلك فانا احبها ولا امل سماعها حتى لو اعدتها الف مرة

ـ ولكنى لا أشعر برغبة فى الحديث .. فأنا أحس بأنحباس بعد التهارش الذى حدث بين ابويك ..

ـ ان عراكهما يتجدد فى كل يوم . .ومع ذلك فلم تكن تأبه لهما .. وكنت تروى لى الحكايات ..

ـ لا يظل الانسان على حالة واحدة يا ولدى ، فانا غيرى بالامس واتوسل اليك ان تنام وتتركنى اقتات من سأمى ..

ـ لقد وعدتنى ان تروى لى حكاية قبل ان انام .. فلا مفر من ذلك .

ـ قلت لك اننى حزين واشعر بانحباس فى نفسى ..

ـ انا ايضا حزين .. واذا تخليت عنى فساظل يقظا وابكى ..

ـ تبكى ؟ ! ..

ـ احيانا ابكى فى الظلام وانا افكر بأبى وامى .. انهما لا يحبانني ..

ـ انت واهم يا ولدى .. انهما يحبانك ، ولكنهما يرغمان على

القسوة ارغاما لاضطراب حياتهما ..

ـ لماذا لا يعيشان بصفاء ..

ـ لا يستطيعان .. كل شيء حولهما مضطرب .. فلا يملكان الانسلاخ منه ...

واحس الصبي ان جده يلجأ ثانية الى الفاظ كبيرة لا طاقة له بفك رموزها .. فأحنى جسمه الى الامام وطوق جده بيديه وقبل خده بحنان وهمس :

ـ اتريدني ان اظل يقظا وابكي ؟ ..

وزحفت شفتا الجد المرتجفة الى اذن الصبي وضغط بهما شحمتها وتمتم :

ـ صدقني ان نفسي غير مهيئة لاى شيء ..

ـ ومع ذلك ، فلا ادعك حتى تفعل .. فانا لا اريد ان ابكي ..

ـ اية حكاية تفضل !

ـ اية واحدة ..

ـ التنين الاصفر والخرا فالامنة ؟

ـ مخيفة وتضاعف الحزن ..

ـ الخزاف الساحر وهياكل الطين ؟ ..

ـ لا اميل اليها ..

ـ الحاكم الظالم ومرابع الجنة ؟ ..

ورفع الصبي رأسه وجعل ينظر الى السقف وكأنه يحاول استذكار شيء بعيد وتمتم !

ـ لا اكاد اذكرها ما اولها ؟
ـ حكيتها لك مرة وكنت نائما ..
ـ لمـــــاذا ؟
ـ لا ادرى لماذا .. فقد استيقظت مرة فى منتصف الليل على اثر حلم مزعج وفجأة شعرت باشياء كثيرة تضج فى نفسى ، وعبثا حاولت اسكاتها او العودة الى النوم .. ولقد وجدت ان خير ما افعله فى مثل هذه الحالة هو ان اتحدث .. فلكى تتخلص من القيـــح الذى يغلى فى الدملة عليك ان توجد له متنفســا ... ومتنفس الدمل التى تورثها فواجع الحياة فى النفوس هو الحديث عنها .. فجلست فى الموضع الذى اجلس فيـــه كل يوم ورحت اتحدث اليك كما لو كنت فى يقظة تامة ، وارد على الاسئلة التى كنت اخمن انك ستسألنى اياها ...
ـ ولماذا لم تحكها لى ؟ ..
ـ لا ادرى .. ربما لانها اقسى من ان تحكى لطفل لم ينضج بعد لمثلهـــــا ...
ـ ولكنى لست طفلا ، فقد بلغت الحادية عشرة ..
ـ لا احب ان اراك الا طفلا .. تمرح بسعادة مطلقة ، تقفز هنا وتنــط هناك ، لا شىء يعكر صفوك ولا هموم تضعك بــين حجرى الرحى فتسحق حياتك ببطء قاتل وتحيلها الى ثمالــة ملوثــة بصديد البشر .. واحتضن الصبى جده بقوة ودفـــن وجهه فى رقبته وغمغم :

ـ انك تخيفني يا جدى ·· فانت تقول اليوم اشياء لم تعودني سماعها

ـ ربما لاني احس ان الوقت قد حان لان تفتح عينيك على امور ما زلت تجهلها ··

ـ واى شيء يجعل الحكاية تلك قاسية ··

ـ انها ·· انها ·· مهما يكن ، فلعلي كنت على خطأ ·

وابعد عنه برفق يدى الصبي وقبله في عينيه واراحه على الفراش واتخذ هو مكانه المعتاد وجعل يتحدث ببطء وشفتاه ترتعشان بألم :

« يحكى يا ولدى ،انه كان في سالف العصر والاوان ، حاكم ظالم جاء من بلاد بعيدة وسيطر على رقعة كبيرة من الارض الخصبة ·· ارض لا مثيل لخيراتها ويعيش اهلها في دعة واطمئنان ·· وقد استطاع هذا الحاكم ، ياولدى في بداية الامر ، بما يملك من دهاء وشيطنة ان يوهم سكان تلك الارض ان غايته الاولى والاخيرة من مجيئه هو اسعادهم وتوفير الرخاء لهم ·· وقال فيما قال ـ ان هناك ثروات لا حصر لها مطمورة في جوف الارض ما زالت مهملة ضائعة لعدم وجود خبرة لدى سكان تلك الارض وان لديه مثل هذه الخبرة والمال الذى يستغلها ·· وانه سيجعل انهارا من العسل واخرى من الحليب تخترق كل قرية وتمر من

كل بيت ..   ولقد صدقه سكان تلك الارض يا ولـدى ..
كانوا بسطاء وطيبين .. طيبين جدا ..

ـ ولكن الم تطلب منى دائما ان اكون ولدا طيبا يا جدى ؟!..

ـ اجل يا ولدى .. ولكن لا الى الحد الذى تكون فيه ساذجا .. الطيبة تعنى التسامح والتعاون ولكن بأدراك ، اما السذاجة فهى أن تستغل وتسخر لخدمة الاخرين دون ان تدرى ماذا يصنع بك

ـ وهل كان سكان تلك الارض ساذجين ؟ ..

ـ لقد صدقوه لانهم كانوا طيبين اكثر مما يجب .. فرحبوا به ووضعوا كل ما يملكون تحت تصرفه . .ومرت الايام والاعوام ، وكان الحاكم الجديد يستقدم خلالها من بلاده البعيدة تلك عددا كبـيرا من الجنود وغير الجنود بحجة الدفاع عنهم وحمايتهم .. ثم لم يلبثـوا ان وجدوا ان امورا غريبة بدأت تحدث تخالف ما وعد به وتنقض اقواله المعسولة .. بدأوا يلاحظون ان الترف والرخاء اللذين وعدهم بهما يعمان حاشيته ويقتصران عليـه ، وانه كان يستدعى الجوارى والغانيات من انحاء الارض ليقضـى لياليه بـين الغناء والطرب والخمرة .. وان الكثير من خـيرات ارضهم تنقل الى بلاده البعيدة التى جـاء منها .. وحـين هموا بالشكوى غضب الحاكم من ذلك غضبا شديدا واطلـق لجنـوده

حرية التصرف بالقضاء على من كان يسميهم بالمشاغبين ‥ لقد امتلأت السجون ، يا ولدى بالناس حتى ضجت بهم ٠ وضمت المقابر عددا لا يحصى من الابرياء الذين حاولوا ان يثأروا لكرامتهم المهانة ‥ وسيطر الخوف على سكان تلك الارض فما كان احد منهم يجرأ ويهمس بشيء ضد ذلك الحاكم الظالم او يتحدث مع نفسه ٠

ـ جدى ‥ الم يشكو ابى دائما الى من يأتى الينا من ان احدا لا يستطيع ان يهمس مع نفسه ‥ كيف يقول ذلك وهو يتحدث اليهم بما يشبه العراك ؟ ‥

ـ ما يقوله ابوك او خالك او من يأتى اليكم لا علاقة له بالحكاية هذه ‥

ـ ولكن ما معنى ان احدا لا يستطيع ان يهمس مع نفسه ؟ !
ـ اذا كنت تسأل ونحن فى اول الحكاية فلن استمر ‥
ـ ولكنك تشجعنى على السؤال وتقول انه مفيد ؟ ! ‥
ـ وما زلت ‥ ولكن ، لا كهذه الاسئلة ‥
ـ وهل ظل الحاكم الظالم ذاك يقودهم الى السجون والمقابر ‥ الم يحاول احد منهم ان يقتله ؟ ٠٠٠٠
ـ تقول الحكاية انه كان يمارس ابشع انواع الارهاب ، فما

كان يدع فنا من فنونه لم يجربه ٠٠ نصب المشانق فى الساحات ليعلق عليها كل من يجرأ بالشكوى او يدعى ان حاصل زرعه يسلب منه ، او ان خرافه تسرق علنا لتذبح تحت اقدامه ٠٠ فسيطر عليهم الرعب يا ولدى ، وما كان بقدرتهم عمل اى شيء ٠٠

ـ الم يقل ابى الى من يأتى الينا ، ان الرعب الذى يسيطر عليهم قدا احالهم الى حيوانات اليفة، وانهم اذا لم يتحرروا من عقدة الخوف هذه فسيظلون مجرد اجساد تتحرك بحكم العادة ! !

ـ الخوف يا ولدى مرض ٠٠ ومن اشد الامراض خبثا ، فأذا لم تقض عليه فى مهده قادك الى الهلاك ٠ ٠

ـ الخوف مرض ٠٠ كيف يكون الخوف مرضا ؟ ٠٠

ـ حين اصبت بالحصبة منذ عدة اشهر ، وظهر على جلدك ذلك الطفح الاحمر ، وارتفعت درجة حرارتك ورحت تهذى ٠٠ الم يستول الخوف على ابويك وظلا يسكبان الدمع وهما يريانك تئن وتتألم ٠٠ الم يجعلنى اتلوى قلقا فلا استطيع النوم ولا تقبل معدتى الطعام ؟ ٠٠ لقد عطل فينا الخوف كل احاسيسنا وغرائزنا واقتصرها على شيء واحد فقط هو الا

نفقدك ..

- اجل .. احسب الامر كذلك

- كذلك الخوف يا ولدى ، فأنه حين يدهم الانسان يحيله الى حطام باهت

- كيف ؟ ..

- حين يفترس الانسان الجوع ويظل قلقا من ان لا يجد ما يأكله او حين يخشى السير او الذهاب الى مكان ما لكى لا يجد من يتعقبه انى سار ليحصي حركاته .. او حين يختض فزعا من ان يبتر لسانه اذا تفوه بشيء يعتقده حقا .. او حين يتأكله الرعب من ان يطاح برأسه اذا اوحى له بغير ما يأمر به الحاكم .. حين ينتهى الى مثل هذه الحالة اصبح لا اكثر من جسد يتعفن ببطء ..

- وهل استطاع سكان تلك الارض ان يتحرروا من الخوف يا جدى ؟ .

- ان لكل شيء نهاية يا ولدى .. هذه قاعدة .. فما لشيء مهما

كان ان يستمر الى مالا نهاية ٠ اجل ، لقد استطاع ذلك الحاكم الظالم ان يفعل الاعاجيب، حرق البيوت، واغتال ما كان يدور فى رؤوسهم ، وقادهم كالخراف الذليلة ٠٠ ولكنه هزم فى النهاية ٠٠

كيف ؟ ٠٠

– ان قوة الانسان الكبرى يا بنى تكمن فى شعوره من انه انسان وليس شيئا اخر ٠٠ اجل ، كانوا بسطاء ٠٠ طيبين جدا ٠٠ ولكنهم لم يكونوا خرافا ٠٠ كانوا مقهورين لا يقدرون على مجابهة جند الحاكم ولكنه كان غير قادر على اماتة الحس الانسانى فيهم ، وهذا شيء مهم ، فسرعان ما راحوا ، كما تقول الحكاية ، يتدارسون بالسر ما حاق بهم وما ينبغى لهم ان يعملوه ٠٠ كانوا يتخذون من ظلام الليل ستارا يحتمون به فى الاماكن المهجورة ويتداولون امورهم ٠٠ وكان ما يتواصون عليه ينقل الى جميع سكان تلك الارض بسرية عجيبة ٠٠ وبهت الحاكم من الهدوء الذى كانوا يواجهونه به ٠٠ فما عادوا يصرخون اذا انتزع احدهم من داره فى سكون الليل ، وما عادوا يلجأون الى العويل اذا علق احدهم على المشانق ٠٠ لقد ظلوا يخافون يا ولدى ، حتى لم يعودوا يأبهون له ٠٠ وهذه ناحية تكاد تكون مجهولة من العقدة

التى تنشــأ فيه فى البدء ..

ـ ولكن .. ماذا يقصد ابى وعمى وخالى ومن يأتى الينا من ان عليهم ان يتحرروا من عقدة الخوف .. من اى شىء يخافون ؟

ـ من اشياء كثيرة ..

ـ مثل ماذا ؟ ..

ـ من ان يفقدوا صفتهم الانسانية ..

ـ ومن الذى يفعل ذلك ؟ ..

ـ الحاكــــم ..

ـ ولكنه كان فى الزمن السابق ..

ـ هذا صحيح .. الحاكم الذى اتحدث عنه وجد فى سالف العصر والاوان .

ـ ولكنى لا افهــم !

ـ هناك امور ستظل لا تفهمها حتى تكبر ..

ـ وماذا يقصدون بقولهم من انهم اصبحوا حيوانات اليفة ... كيف يكون الانسان حيوانا اليفا ؟ ! ..

ـ احيانا يراد منه ان يكون كذلك ..

ـ كيــــف ؟ ..

ـ كيف اوضح لك .. خذ اى حيوان .. جروك المدلل مثلا فأنه من حيث التركيب الجسمى يشبه الانسان .. له عينان واذنان ويدان وقدمان ومعدة تماما كما للانسان .. اليس كذلك ؟

ـ اجل ، انه ، من هذه الناحية ، يشبه الانسان ..

ـ وله ايضا لسان ، ولكنه لا يستطيع النطق به ، ومـخ ولكنه لا يملك قابلية التفكير ٠٠ بعكس الانسان الذى يمتاز عليه بقابلية النطق والتفكير فأذا حرم منهما انعدم ما يميز احدهما عن الاخر ٠٠

ـ وحين حاول الحاكم ان يقضى على كلام سكان تلك الارض وعلى ما يفكرون بـه ، جعل منهم حيوانات اليفة ! ٠٠

ـ حاول ان يجعلهم كذلك ٠٠

ـ وكيف استطاعوا ان يقضوا عليه ؟ ٠٠

ـ تقول الحكاية ، ان هدوءهم الغريب ذاك بدأ يقض مضجعه ٠٠ كان يحدس ان وراء هذا الصمت المخيف شيئا ٠٠ وان هناك دخانا يكاد يخنقه وجنده ولكنه لا يعرف مصدره ٠٠ وبـدأ الخوف يزحف اليه وينشب فيه مخالبه المرعبة ٠٠ والحاكم حين يخاف يا ولدى يستحيل الى وحش ، فلكى يوحى بالقوة الى نفسه يعمد الى ابشع انواع الارهاب ٠٠ لقد انتقل اليه الخوف الذى استحوذ على سكان تلك الارض فى بادىء الامر ٠٠ كان لا ينام لكى لا يحلم بما يخشى وقوعه ٠٠

ـ وهل يستطيع الحاكم ان يتحرر من الخوف يا جدى ؟

ـ بعضهم يستطيع ، وبعضهم يقضى عليه قبل ذلك ٠٠

ـ كيـف ٠٠

ـ يقضى الحاكم الظالم عـلى عقـدة الخـوف التى تنشـأ لديـه باستعداده لتقبل الموت، بعكس السكان ، فأنهم حين يتحررون

من عقدة الخوف يتهيأون لاستقبال الحياة ..

ـ وهل استطاع الحاكم الذى تتحدث عنه ان يتحرر من الخوف ؟

ـ الحكاية تقول انه مات جبانا ، ومعنى ذلك انه كان ما يزال خائفا .

ـ وكيف مات ؟ ..

ـ تقول الحكاية ، ان سكان تلك الارض ، بعد ان استكملوا اسباب الاطاحة بذلك الحاكم اعلنوا الثورة عليه فخرجت الجموع الحاشدة تفتك برجاله الذين جاء بهم من بلاده البعيدة ، وحين اقتحموا الاسوار التى اقامها حوله وجدوه فى حالة من الذعر لا توصف ..

ـ ولماذا يكون الحاكم ظالما يا جدى ؟ ..

ـ ليس دائما .. فهناك من يتصف بالعدل ومعاملة الناس بالحسنى

ـ ولكن جميع الحكايات التى حكيتها لى .. كان فيها الحاكم ظالما ..

ـ اتفق ان يكونوا كذلك ..

ـ ولماذا لا يتنازل ؟ ..

ـ ماذا ؟ ..

ـ حين يجد ان الناس لا يريدونه ويعملون على قتله ، فأن من الاحسن له ان يتخلى عن الحكم ويدع الناس يختارون من يريدون ..

ـ انه الغرور يا ولدى .. الغرور ، والشعور المطلق من انه

لا يملك حقا ازليا فى التحكم برقاب الناس ،وانهم ما وجدوا على هذه الارض الا لكى يقوموا على خدمته فقط ..

ـ وبعد ان قتل سكان تلك الارض الحاكم الظالم..هل استطاعوا ان يجدوا حاكما عادلا ويعيشوا بسعادة ؟ ..

ـ الحكاية تقول ... لا ...

ـ كيف ؟ ..

ـ الحكاية تقول انهم اختاروا من بينهم شخصا كان اشدهم حماسا فى محاربة الحاكم الظالم ونصبوه عليهم .. ولكنه ما لبث ان انتهى الى ممارسة نفس ما كان يمارسه الحاكم السابق .

ـ وهل ثاروا عليه هو الاخر ؟ ..

ـ لا ادرى .. فأن الحكاية تقف عند هذا الحد ..

وصمت الصبى برهة ، ثم راح ينقل بصره فى انحاء الحجرة وكأنه يحاول بذلك ان يبعد عنه خواطر كثيرة غامضة لا يدرك كنهها ويخجل ان يواجه جده بها .. وقام جده ليسدل ستارة النافذة ثم اتجه نحو الباب ومد رأسه منها .. وحين لم يسمع حركة حدس ان ابنه وزوجه ذهبا الى سريرهما ليمارسا العمل الوحيد الذى بقى لديهما دونما تجسس من الاخرين ، كما يجأر ولده بذلك امام من يأتى اليهم ويجعل زوجه فى حالة غضب لا يطاق .. وكان الصبى قد سحب الغطاء عليه وتهيأ للنوم ... فهمس بخفوت :

ـ ولكنى ما زلت لم افهم تماما لماذا يتحدث ابى وخالى ومن يأتى

الينا ، عن الخوف ·· من اى شىء يخافون ؟ ! ··

وكان الجد يقف عند سريره ، فانحنى وقبله بحنان وتمتم :

ــ من الحاكم يا ولدى ··

ــ ولكنه مات ···

ــ حين يموت الحاكم ، يموت جسده فقط ·· اما روحه فتحل فى من يليـه ·· هذه قاعدة ··

ــ ولكن ·· الى متى ؟ ··

ــ حين يكف الناس من عادة تنصيب الحكام ··

وكان النعاس الذى يراود الصبى قد افضى به الى النوم ··

وانحنى الجد ثانية وقبله من رأسه ·· ثم اطفأ النور واتجه الى النافذة وازاح عنها الستارة ·· كانت النجوم تمـلأ السماء كأنها ثـقوب صغيرة يندلق منها نور خافت يتسـلل الى النفس فيورثـها حزنا مبهما ··

وظل يحملق فيها بسهوم ·· كان حزينا ·· ويقظا · ·ولا يشعر برغبة فىالنوم ···

صبر

اشـعل احمد عود ثـقاب وقربه من معصمه الايسر ..
كان قد نظر الى ساعته منذ هنيهة ، وكان يعلم انها قد تجاوزت الثالثة صباحا ، ولكنه كان يشعر ان عليه ان يقوم بحركة يحرر بها نفسه من الذهول الذى داهمه فجـأة .. فرفـع معصمه الى عينيه اللتين ما كانتا تنصاعان لجهوده المضنية فى ان يبقيهمـا مفتوحتين بعض الشىء وتراقبان ما يدور حوله .. واطفـأت الريح ويده التى كانت ترتجف عود الثقاب قبل ان يحدد الرقم الذى يستقر عليه عقرب الدقائق .. فتراجع الى الوراء قليـلا واسند ظهره الى احد العواميد التى يقام عليها الكـوخ .. كان صحبه يستعدون للعودة . وكانت الفوانيس التى يحملها بعض الاعراب ترشح ضوءا كابيا لا يكاد ينـير مواقع اقدامهم ...

كان الظلام ساحما يجتـث طمأنينـة النفس ويحيـل وعوعة الكلاب الى ما يشبه نعيب البوم .. وكانت محركات السيارات

تحدث قرقرة متواصلة فتنمو معها الرهبة التى تتدثر بالظـــلام القاتم ٠٠٠

وكان العربيد الذى يمسه احمد يتمطى فيـه ، يفـح فـى رأسه ظنونا مرعبة ٠ ٠وحاول ان يخطو قليلا الى الامام ويقترب من صحبه او من بعض الاعراب الذين كانوا ينيرون الطريـــق ومنهمكون فى تهيئة وسائط النقل للمدعوين ، ولكنه وجـد ان قدميه اضعف من ان يضطرهما على الســير خطوة واحدة ٠٠٠ فعصر جفنيه بقوة ثم حاول فتحهما٠٠لم يكن يستطيع ان يشخص احدا ممن يقف بالقرب منه او يفهم طبيعة ما يدور حولـه ٠٠
ـ كان ينبغى ان تفهم ان القدر بانتظارك فى اى مكان تذهـب اليه ٠٠ ـ ٠٠ وتمنى بعمق ان يضع رأسه على شىء ما وينام٠٠
ـ ما جدوى ان تقطع نفسك الما ٠٠ وما جدوى ان تقيم معهـا نقاشا لا يتسم بغير العقم ـ ٠٠ وحاول ان يلهى نفسه بدخينـة ولكنه تخلى عنها، فقد كان لسانه يدير داخل فمه لعابا مرا يبصقه بين الحين والحين٠٠واجفله صوت ارتطام كف ثخينة بوجه اعجف وسباب ينطلق من فم مخدر بالكحول ، كالمسامير المسمومة ٠٠٠ فحدس انه قد عثـر على سائق احدى السيارات الذى اعياه التعب والسهر فزحف بعيدا عن الضجيج ونام فى العراء ٠٠ ـ لكـى تجعل الاخرين يحسون بوجودك ٠٠ لكـى تجعلهم يخشـونـــك ويهابونك ، فلا مفر من ان تنفتح امامهم ٠٠ ـ ٠٠ وتعالى هدير

محركات السيارات كالرعد المخنوق بكتل الغيوم يكتسح الاصداء الباكية ، ويستنفر الكلاب التى كانت تغرز قوائمها فى الارض على بعد امتار من الواقفين وتجعلها تستشرس فى نباحها ٠٠ ـ لماذا نعجز عن افهام هذه الحيوانات الصغيرة انها ليست طرفا فى النزاع ٠٠ ان احتجاجها هذا لا معنى له ، فما نقوم به امر حيوى ٠٠ فلكى ننتزع الدم الفاسد فلا بد من ان نقوم بعمليات الفصد بين حين واخر ٠٠ ـ وتجمد زئير مرعب فيه ٠٠ ـ جميل ان تجد ما تتفلسف به فى مثل هذه اللحظة ٠٠ ـ وجرر ساقيه قسرا وقادهما الى احدى السيارات وانزوى خلف السائق يسحق الزمن وتتعثر نظراته بالنور الذى تنشره مصابيح السيارات٠٠

منذ ان استيقظ صباح ذلك اليوم طوف فى سمعه صدى واه لنشيد فريد الايقاع تئن به عظامه ٠٠ وحاول ان يتجاهله ، فما كان يطيق معايشة الاصداء التى ترددها اعماقه برتابة النغم الجنائزى ٠٠ ـ ما جدوى ان تظل متوترا مشرئبا بانتظار مجهول غامض ليس بوسعك ان ترده ؟ ٠٠ ـ وحين اتصل به صاحبه عادل وسأله فيما اذا كانت لديه رغبة فى مرافقته مع ثلاثة اخرين يعرف اثنين منهم معرفة وطيدة٠٠ الى الصيد، احس كما لو ان يدا خفية تمتد لتنتشله من الاصداء المرعبة التى تفتح فى نفسه ٠٠ ومع انه كان يعلم ان دعوات الصيد التى يهيؤها بين حين واخر بعض رؤساء القبائل لبعض المتنفذين فى المدينة لا تقتصر على مطاردة الضباء او الطيور ، الا انه ما كان يملك ان

يعتذر او يشذ عما هو متعارف عليه ٠٠ ـ حين تعدم الوسيلة التى تدخل الطراوة على حياتك فلا تدعها تجف فليس لك الا ان تقتات الجيف التى يقتاتون ٠٠ ـ

وحين وافى احمد صحبه فى المكان الذى حدده له عادل كانوا يستعدون للبدء فى الرحلة٠ وكان الداعون قد هيأوا لوازم الصيد واشيا ءاخرى كانوا يعدونها الروح الحقيقى لمثل تلك السفرات ،ولم يكن احمد يحسن الصيد ، ولم يكن كذلك يطيق رؤية دم حيوان يشخب ،ولكنه ما كان كذلك يطيق ان تظل حياته تدور داخل رقعة محدودة برتابة قاتلة ٠٠ واستقبله رفاقه بتقاطيع تهلل للحياة والربيع ٠ ٠وكان صاحبه عادل يبدو سعيدا مرحا يطلق النكات ويحث القوم على رواية ما يحفظون منها ٠٠ وكان أحمد ما يزال يحس بصدى واه لنشيد حزين يطوف فى سمعه ٠٠ وكانوا قد فرغوا من نقل الامتعة الى السيارات الثلاث التى كانت بانتظارهم ٠٠

وارتطم رأس احمد بسقف السيارة ، فطوقه عادل بذراعه اليسرى ، وطلب اليه ان يكون منتبها ، فقد يصاب بأذىاذا ظل رخوا مطرقا رأسه الى صدره، خاصة وان الطريق وعرة والسيارة ما انفكت ، بسبب الظلام القاتم ،ترتطم بكتل من الطين الجاف او تهبط فى منخفض واطىء ٠٠ فرفع احمد يده الى رأسه

يتلمسه ثم حاول أن يزحزح جفنيه عن موضعهما فلم تطـاوعاه وظلتا مطبقتين كغطائين من رصاص ٠٠ وكان لسانه ما يـــزال يدير فى فمه لعابا لم يعد يطيق مرارته ٠٠ ـ ٠٠ لا مفر ٠٠ حين يرسم لك القدر طريقا محددا فليس لك الا ان تقطعه خطوة خطوة ٠٠ ورقة التقويم التى ظللت تحملق فيها صباح هذا اليوم هى كل ما تملك فى هذا الوجود ٠٠ وكما ترميها فى القمامـــة فى اخر النهار ٠٠ او تسحقها تحت اقدامك ، ترمى حياتك فى الهباء او تجعل الاخرين يدوسونها كعقب نتن لسيكارة رخيصة ـ وضغط بحنكة صدره ٠٠ ـ خير لك ان تبعد عنك مثل هـــذه الخواطر ، فلن تضيف غير احساس بالمرارة ٠٠ وسفرة الصـيد تفقد معناها اذا خلت من رصاص يطلق ودماء تشخب ٠٠

وتحرك الركب ، واطلق احدهم رصاصة فى الفضاء ايذانـا بالرحيل ٠ ثـم راح يغنى لحنا شعبيا مبتذلا كان يظنه يدخـــل السرور الى نفوس المدعوين ٠٠ وكان عادل يهيىء الة التصوير التى يحملها معه ، وكانت بنادق الصيد قد ملئـت بالرصاص ، وكان الهواء يتهادى رخواً يحمل فى طياته بشائر الربيع المعطار والارض مبتلة بمياه الامطار التى تساقطت منذ بضعة ايام ٠٠

وصل الركب الى منطقة تكثـر فيها الطرائد ، وراح الضيوف يجيلون النظر فى الفضاء الواسع ٠٠ وكانت الطبيعة تضحـك

ملء اهابها .. وكان أحمد قد غرق فى ذلك الجو البهيج فما عاد يسمع الصدى الحزين الذى كان يوهوه فى سمعه .. فأخذ بندقية من احد الرجال ووضع حمالتها على كتفه وطلب من عادل ان يلتقط له صورة معها. واخرى مع القوم وثالثة داخل السيارة

وكان رأس احمد يهوم برتابة ،والصداع يتجمع فى مؤخرة رأسه فيحس كما لو ان مدية تقطعه .. ـ كان ينبغى ان تفهم ان ما طوف فى سمعك لم يكن مجرد ترديد لمجهول لا معنى له .. استعادة ما وقع جزءا جزءا يعمق الندم فيك .. حياتك كلها خطيئة .. وجودك خطيئة .. خطيئتك الكبرى انك وجدت فى وسط ممزق .. ورفضك الانصياع لطبول الشهوة التى لا يقرع غيرها صيرك منبوذا .. ـ وكان حلقه قد جف ولم يعد لسانه يجد لعابا يديره فيه .. وانزلقت من بين شفتيه لفظة ـ ماء ـ كما لو انها كانت اخر حشرجة يصدرها انسان يحتضر .. ـ ماذا أفادك الرفض هذا؟ .. لا شىء ، سوى ان تكون متهما بألف تهمة لقد صور لك وهمك انك قد تجاوزت وسطك .. فسحقك بأقدامه .. ضحية !.. هيه ! .. الفاظ لا بأس من ان تتعلل بها عند الحاجة .. ولكن ، اين هى حياتك ! .. تعاقب الزمن لا يصير منك انسانا .. ـ .. ومضمض فمه بقليل من الماء.. ـ وبأى شىء كنت تحظى لو أنك صدعت لما يراد منك سوى أن تجوب الفراغ .. وتمضغ الزمن .. جثة تبحث عن صيد يساعدها على مضغ الزمن ولا شىء غير ذلك .. ضائع .. ومحطم ....

ومقتول فى الحالتـين ...

وكان القوم قد تفرقوا الى جهات ثلاث يبحثون فيها عن صيد يحقق لهم المعنى العظيم لوجودهم .. وكان احمد يسير خلف احد الذين احال باصرتيه الى عينى ذئب تبحثان عن المخبأ الذى تلجـأ اليه الفرائس ..

وطـال التطواف ، وطال البحث دون جدوى عن شىء تطلـق عليه رصاصة واحدة .. والتقوا جميعا فى النقطة التى حددها لهم احد الاعراب ، وكانت بالقرب من نهر تكثر على جوانبـه الاعشاب العالية .. وكانت الشمس قد بدأت تغوص فى لجـج البحار البعيدة فتبدو كما لو انها تقاوم وحشا هائل الضخامة يهم بالتهامها .. وكانت الاشعة القانية التى تصبـغ قطـع الغيـوم المتناثرة فى الافق اللامتناهى تبدو وكأنها انسجة رقيقة تمجهـا الشمس فى محاولة يائسة للافلات من الشرك الذى كانت تغوص فيه ..

وامتدت يد احمد تزحف الى جيبه لتخرج علبة السكاير ..
ـ لا شىء .. تجهد حياتك كلها فى اقامة الافخاخ لضحايا بريئة .. ثـم تكتشف فى النهاية ان شباكك خالية وخيوطها متهرئـة .. فراغ ولا شىء غير الفراغ .. ماذا كان بأمكانك ان تفعـل

سوى ان تعتنق مبدأ الرفض ·· وماذا كنت تجنى من انصياعك لصوت الشهوة سوى ان تتجمد راحتاك على غدارة تظن أن بأمكانها ان تدفع عنك صراخ الجثث التى كنت تدوسها فى اثناء عدوك المخبول ·· وهل بأمكان الاف الاطلاقات ان تزحزح نجمة عن موضعها ؟ ! ·· —

وحدد احد الواقفين نظره ·· فقد كان يخال اليه انه يلمح رقبة اوزة برية تقف فى الجانب الاخر من النهر ·· فوجه اليها فوهة بندقيته وانفجر دوى يمزق الفضاء ·· فلم يتحرك شيء ، وتعالت القهقهات · وهب سرب من الزرازير كان يبحث عن حب فوق كومة من تراب واستقر غير بعيد من المكان الذى انطلق منه وتمتم احد الواقفين بشيء ثم راح يزحف ·· لتكن الضحايا عددا من الزرازير اذا كانت الخيبة هى الحصاد النهائى لامالهم الخائبة ·· وانطلق الدوى ثانية ·· وانطلق السرب يحدث ضجيجا فى الفضاء مارا من فوق رؤوسهم الى الجانب الاخر من النهر ·· وانتهز اخر هذه الفرصة واطلق الرصاصة الثالثة على الذى كان يخفق بأجنحته الصغيرة منتشرا فى الفضاء مذعورا كغيمة سوداء فتتتها الريح الى اجزاء صغيرة كاحجار الفحم ·· وقذف ثالث بأطلاقة اخرى الى الفضاء وقال انه يختتم بها نهاية سفرتهم الفاشلة ·· وانتهز احمد هذه الفرصة واقترح عليهم ان يلتقط لهم صورة الى جانب النهر قبل ان تنطفيء الشمس ··

فقد كان يشعر ان نهاية النزهة هذه هى افضل نتيجة يحصل عليها ·· فلم ير دماء تشخب ولم يسمع تهليلا لقتول تتساقط ··

كان فرحا ويحس كما لو ان الهواء المضمخ يعطر الربيع الضاحك يمتص ما تجمع فى صدره من وساوس والطبيعة تمده بسعادة طرية ··

وانتهوا جميعا الى مضارب اصحاب الدعوة · وكان الاعراب بانتظارهم ، وكان الظلام ينشر ستائره الداكنة ·· وصبت المياه من الاباريق على ايديهم ووجوههم ليزيلوا عنها غبار الطريق ·· واقترب احمد من عادل الذى كان يوشوش مع احدهم بخفوت ·· وكانت الوشوشة ذاتها تدور بين بعض الواقفين · ·وكانت الشفاه تتعثر بأعذار باهتة · ·وكانت اسارير الاعراب متحفزة منطلقة تستجدى الظلام القاتم غمامة تهمى ·· ثم تراخت الشفاه وازدهرت فيها ابتسامات صغيرة خجولة··وتهللت اسارير الاعراب وراحت وجوههم تعبر عن اقصى ما فى الوجود من سعادة ·· ان املهم سيتحقق ·· زهرة الغجرية ستحضر مع بناتها ··

وكان فمه قد عاد يابسا لا يجد لسانه لعابا يديره فيه ·· وكانت السيارة قدارتطمت بحجر فى الطريق فأحدثت اهتزازا قويا ·· وانطلقت ثلاثة كلاب كانت تربض بالقرب من بعض

الاكواخ تسابق السيارات وتنبحها بعواء شرس محموم من انياب حاقدة مهيأة للانتقام ٠٠ وصر احمد على اسنانه بحقد لا يطاق ٠٠ ـ انها ما زالت تنبح ٠٠ نذير الشؤم ما انفك يحوم حولك ٠٠ظللت تخنق نشيدك الدامي حتى كدت تقتل ذاتك٠٠ما جدوى ان تنصت الى وهوهة باهتة وسط صخب يفوق وعوعة الذئاب٠٠ خوفك الاكبر من ان تتعفن اضحى اضحوكة ممقوتة٠٠لقد تعفنت ٠٠ انك ليس اكثر من مسخ مشوه ٠٠ تخثر كل شيء فيك واستحال الى عادات تأكل نفسها ٠٠ عادات متحركة ٠٠ انك ليس اكثر من عادات متحركة٠٠ انتفاضاتك الهزيلة امتصتها العناكب السوداء ٠٠ النخر الذى تحسه يقطع ذاتك تصلب فى الظلام الابدى ٠٠ مكانك الازلى المقابر ٠٠ لكى تبرهن انك تحترم الحياة وتقدسها فليس امامك سوى ان تمضغ الاجداث وتقيئها ٠٠ تقطيعك لحوم الاموات الدليل الاقوى على احترامك المتسامى للحياة ٠٠ وجودك تتأطر اسبابه في ان تقوم بمثل هذه المهمة٠٠ السهم مشدود ابدا الى قوسه لينطلق فى اللحظة التي تحاول فيها عيناك ان تجتازا هذه الاجداث فيسملهما ٠٠ النشيد الكئيب الذى ظل يئز فيك كطنين النحل وانت تحدق فى التقريم السرمدى لم تشأ ان تنصت اليه ٠٠ كنت تظن ان وجود غجرية تنز منها الشهوة كخراج جرح عفن قد يوقظ منك حسا تتحرق الى اثارته ٠٠ حين تغلق الرؤيا على مسخ مشوه يفرز التقزز داخل فجوة يتمطى فيها بوقاحة متناهية ، فأنه من المحتمل جدا أن

يجتث بقايا الم تحس انه ما انفك ينبض فى عـرق لـم يقرحه العفن بعد ٠٠ ـ وردد الصدى صـوت من بعيـد ٠٠ ـ اتكـون الرصاصة هذه هى الاخيرة ٠٠ ام ان الاولى لم تطلق بعد ؟ ـ

وكانت الاطلاقات الاربع التى دوت فـى الفضاء فى ختـام النزهة الفاشلة قد دغدغت امـال الغجريـة زهـرة فأرشـدتها غريزتها ان هناك حفلا لا يستقيم بغيرها ٠ فهيأت نفسها ولبـت نداء الاطلاقات وجاءت تسعى على هديها مع ابنائها الثلاث قبل ان يصلها الرسول ٠٠ لقد الفت هذه الاطـلاقات ، الفتهـا حتى انهن لا يعرفن كيف يرقصن اذا خلا المجلس من بنادق تمـــلأ ورصاص يطلق ٠٠ واشعلت الفوانيس ذات الازيز ٠٠ ورحـب القوم بالغجريات القادمات وافردوا لهن مكانا خاصا ٠٠ ومدت البسط فى الكوخ واسندت الوسائـد الى الحائـط ٠٠ وتصـدر المجلس الضيف الذى اقيمـت الدعوة اكراما لـه ٠٠ وجلس الى يمينه ويساره صاحباه ٠٠ وتربع احمد الى جانب عادل الذى بدا مسرورا وملامحه تفضح هياجه النفسى ازاء الغجريات ٠٠ ـ لكى تؤكد انك ما زلت موجودا فليس امامك سوى ان تتلذذ بالصديد اذا لم يكن هناك شىء اخر يجعلك تحس انك ما زلت تحيا ! ٠٠ ولكى تؤكد لذاتك ان الهمس الذى يصدر منها ما زال يجد صداه فى حنايا نفسك ، فليس لك الا ان تخوض مستنقعات الحياة حتى نهاياتها الدامية ٠٠ ـ

ووضعت كؤوس الخمرة امامهم ثم رفعت لتتقـارع ابتهاجا

بمولد ظلام لا يتزحزح ٠٠ وراح من جاء من الغجريات يفجر نواحا كئيبا من ربابات صنعت من الصفيح ٠ ٠وكانت الغجريات الثلاث يقفن فى الفسحة الضيقة الموجودة فى وسط الكوخ ، ثم جعلن يهززن اردافهن العجفاء وقد شبكن ايديهن وراء رقابهن ويجأرن بعواء مبحوح يتحشرج فى حناجر عفنة هدمتها الخمرة والدخان والانسحاق الذاتى ٠٠ ثم نزعن اغطية رؤوسهن السود والقينها الى جانب الضيوف ، وسقط بالقرب من احمد شال احداهن،وكانت عجفاء ذات وجه مجدوروعينين عمشاوين مليئتان بالكحل، وشعر خشن كالياف القنب٠٠ فأدرك لفوره انها ستقصده بعد انتهائها من نحيبها المظلم ٠٠ واقبلت نحوه وجلست الى جانبه وحاولت ان تضع فخذها فوق فخذه فتغاضى عنها ولم يتململ ٠٠ ٠٠ وحاول ان يلهى نفسه بشىء فرفع كأسه وقدمها اليها ، فاعتذرت قائلة ان الغجريات لم يعتدن احتساء الخمرة فى اثناء العمل ٠٠ ــ انها ليست بحاجة الى ان تخدر حسها حتى يمكنها النظر اليك كما تفعل انت ٠٠ لكى تطيق النتانة المنبعثة من الاجداث العفنة فليس امامك سوى ان تظل فى خدر دائم ٠٠ ــ ومدت يدها وانتزعت من جيبه منديله الابيض الصغير ، ورجته ان يمنحه اياها ٠٠

ولم يشأ ان يطيل عذابها ، فاخرج ورقة نقدية ودسها فى يدها وانتزع منها المنديل بلطف ٠٠ ــ اشياؤك النقية على ضآلتها

ما زالت تجد ركنا صغيرا فى نفسك تستقر فيه ٠٠ ـ وتوكأت الغجرية على كتفيه ونهضت وتبعتها صاحبتاها ٠٠ واستأنف من جاء معهن ارسال العواء من الربابات ٠٠ واستأنفت الغجريات الدوران حول انفسهن يقفزن وينحنين الى الامام مرة والى الخلف اخرى ٠٠ وكانت الخمرة التى تصب فى أجواف الحاضرين تبعث فيهم اخيلة يشعرون معها ان الغجريات يستحلن الى ضباء نافرة ٠٠ وكانت الاجساد تميل يمينا وشمالا على وقع النحيب الذى كان يستحيل الى الحان فريدة النغم ٠٠ وكانت الاكف تساير النغم بتصفيق يصك الاذان . والشفاه تردد بحذر مشلول نحيب الغجريات الحزين ، والسكاير تشعل فيملأ دخانها الكوخ بستار رقيق من الضباب الداكن ٠٠ ـ ٠٠ كان ينبغى ان تفهم انك لم تعد بحاجة لاقامة مثل هذا المهرجان لكى تشعر بالانسحاق الذى ما انفك يطحن كل ذرة فيك ٠٠ الاخرون لا يملكون غير هذه الوسيلة الخشنة للتعبير عن ذواتهم الممسوخة ٠٠ الخواء المطلق الذى يفترس لحظاتك القاتمة بوحشية جعلك اشبه ما تكون بقبر متهدم ٠٠ انك لا اكثر من قبر يتحرك داخل خربة اتخذتها الخفافيش مقرا لها ٠٠ خطيئتك الكبرى انك رفضت بأصرار وقبح وجودا متقيحا دونما بديل ٠٠ الاوهام التى صورتها لك اخيلتك الملونة تبددت كضباب الفجر ٠٠ القيح الذى فجره الغبش الدامى لطخ كل شىء بصديده النتن ٠٠ النشيج الكئيب الذى تئن به عظامك سربل حياتك بحداء ازلى ٠٠ انك بالنسبة لهذه

الغجرية التي وضعت فخذها الاعجف فوق فخذك لا اكثر من ورقة نقدية تداوى بها مأساة وجودها ٠٠ ـ

وكانت الغجريات ما زلن يرفسن بأقدامهن كخراف تذبح ، والنحيب يعلو داخل الكوخ الملفع بدخان السكاير كصراخ مكتوم ٠٠ والاكف تلبح في مسايرة العواء المنبعث من الربابات بتصفيق مجنون٠٠وكانت بنادق الصيد تستقر الى جوار المدعوين او في احضانهم ٠٠ وكانت الخمرة قد احدثت مفعولها بالقوم فلم يعد يبدو على الضيف المحتفى به انه قادر على التزام الوقار الذى كان يتصنعه منذ ان غادروا المدينة ٠٠ فراح يومىء الى الغجريات ويطلب اليهن ان يكون نحيبهن ضخما ٠٠ وكان يرفع يديه الى اعلى ثم يخفضها استحسانا للابيات الشعرية الباكية التي كن يرددنها ٠٠ واقبلت احداهن وراحت تتلوى امامه وتنثر عليه شعرها الاسود الطويل ٠٠ فتملكته النشوة الطاغية فتناول البندقية وجعل يركزها الى جانبها ليقيس بها طولها ٠٠ وابتعدت الغجرية عنه ، واصرت الا تقترب منه حتى يضعها جانبا ٠٠ فاستهجن خوفها الذليل وشكها في قابليته الفريدة في التصرف بها وتحكمه فيها وانه يستطيع ان يضع على رأسها قدحا فيصيبه وهي تهتز ٠٠ وارتفعت بعض التوسلات الذليلة تستحلفه ان يضعها جانبا ٠٠ فتصنع الغضب ، وافهمهم بحزم ان بمقدوره ان يسيطر على البندقية ونفسه وكل شيء سيطرة تامة ، وانه يستطيع

ان يديرها بسبابته دون ان تقع او تلامس الارض او تنبعث منها اطلاقة واحدة ٠

ودوى صوت اطلاقة ارعب الحاضرين وجعلهم اشبه ما يكونون بالصخور الصماء ٠٠ وتناثرت شظايا رأس ملطخة بالدماء في ارجاء الكوخ الملفع بدخان السكاير في أحضانهم ٠

ـ ٠٠ الموت رفيقك اينما ذهبت ٠٠ النشيد الحزين الذي حاولت وأده بالحاح يائس يؤكد وجوده الحي ـ ٠٠ الداعون توسلوا الى الرجل الا يأبه للامر ٠٠ فالطفل الذي استقرت الرصاصة في رأسه نفاية تافهة لا توجب الحزن ٠٠ منذ ان تشرب انسان هذه البقعة من الارض القبيح الذي فجره الغبش الدامي استحال دمه الى خراج كريه ٠٠ خطيئتك الكبرى انك وجدت في مقبرة مغلقة ٠ ٠ وجريمتك الازلية انك رفضت بشموخ تلك الاجداث المتفسخة ٠٠ المبرر الوحيد لوجودك هو ان تمضغ الاجداث وتقيئها ثم تعيد مضغها من جديد ٠٠ الخواء المطلق ما انفك يفترس لحظاتك القاتمة بوحشية ودناءة ٠٠ انك لا اكثر من عادات تأكل نفسها ٠٠ جثة تتحرك داخل مقبرة تعبث فيها الخفافيش ٠٠ الخفافيش تعشش في رأسك الذي استحال الى خربة مهجورة ٠٠ انك لا اكثر من اكذوبة تتقاذفها الرياح السموم ٠٠ ـ

وكان الركب قد وصل المدينة ٠٠ وكان الوجوم مخيما على

الوجوه فتبدو وكأنها قدت من حجر اسود . .وكان احمــد يهوم برأسه ويتحرق الى اغفائة يغتصبها من خلايا النحل التى تأز فى رأسه بعناد .. ــ سعادتك الكبرى . .تتحقق فى اغفائة طويلة .. لا يعقبها صحــــو .. ــ ...

ضياع

رفعت اهدابها الطرية ببطء وصوبت اليه نظرات مرحة يهدهدها فرح طفولى جعلته يرتعش ويغض بطرفه عنها ، ثـــم تمتمت بخفوت حالم خيل اليه انها اصداء نغم فريـد يـردده واد يموج بعشب ربيعى زاه :

ـ هل بحثت عنى طويــلا ؟ ..

وظل مطرقا لا يقوى على مقاومة العذاب الذى يتسلل اليه من خلال هدبيها النديين .. كانت تعتصره انفعالات متناقضة لاحد لقسوتها وتضيع معهــا جهوده الكبــيرة فى السيطــرة عليها او التشبث بتلابيب احساس معين.

فرصة هو وحــده يعرف كيف جعلها تضيــع وتتلاشى كخيــط دقيق من نور تبتلعه ظلمة قاتمة .. وكيف نجمت ثانية فى ظرف

مرير تجرع خلاله الصاب والسم قطرة ·· قطرة ··

وكان يريح ساعديه على المنضدة كمن يطلب منهما ان تعيناه على احتمال ما يضطرم فى جوانحه كأتون يمور بالحمم ·· وكانت اصابعه متشابكة متصلبة تتجمد فى نهاياتها حكايا غريبة ظل يخنقها كلما حاولت احداها الانفلات او التمرد ··

كانت سنى حياته المرعبة كلها قد تحفزت فى تلك اللحظة كحيوان رهيب تتعالى زمجرته المخيفة كلما حاول ان يلوذ بمشاعر التردد التى كادت تستهلك وجوده ·· كان يحدق الى الكأس الموضوعة امامه بذهول مطبق وكأنه يتوسد حلما ينقله الى عوالم متناهية الحدود ويرفض ان يصدق ان كائنا حيا يتضوع عطرا انثويا اخاذا يجلس امامه ويتحرق ان يشاركه البهجة التى تحتدم فيه ·· وتموج صوتها ثانية بلحن عذب اعاد اليه جزءا من ذاته:
ـ بماذا تفكر ؟ ··

وبجهد زحزح جفنيه وأختلس لمحة خاطفة ثم عاد واغضى محملقا فى الكأس ·· وعادت تسأل :

ـ هل بحثت عنى طويلا ؟ ! ··

وانداح شيء فيه كموجة تتسع الى مالا نهاية ·· ثم ارخى

ساعديه قليلا وراح ينتزع اصابعه المتعانقة وكأنه يطلقها من اسر خانق ، واخذت راحته اليمنى تزحف كلص مذعور باحثة عن يدها ، فناولته كفها وهى تبسم بسعادة يرقص لها جسدها كله ، ثم ادناها من شفتيه اللتين كانتا تصطخبان بشبق محموم يكاد يندلق من اول لمسة وتمتم :

ـ وهل يلذ لك اذا رحت اردد على مسامعك العذاب الذى قاسيت؟!

وحوم على شفتيها الورديتين خيال مزوق لبسمة عذبة وغنت لحنا ناعما :

ـ وهل انا التى جعلتك تتعذب ؟ ! ٠٠ لقد جمعتنا صدفة رائعة قلما تسمح بها الحياة ٠٠ والصدف وميض خلب ، ولكنك لفظتها ببرود جعلنى اشعر بالقشعريرة كلما تمثلت جزءا منه ٠٠

وادار وجهه الى الناحية الاخرى من الحجرة ٠٠ كانت بعض الكتب الملقاة على الطاولة الجانبية الموضوعة فى الزاوية قد استحالت الى عيون مذعورة واشداق تقذف فى وجهه صراخا مرعبا ٠٠ وبحركة مجنونة حول بصره عنها وسمره فى تمثال عار لفينوس تحمل فى يدها غصنا صغيرا ٠٠ كان جسدها لدنا غضا يتفجر رغبة وغراما ٠٠ وتلوى شىء فيه يفح كأفعى ٠٠ ـ ٠٠ ما تحاوله عبث فى عبث ٠٠ فما ظللت تغذى دمك به زمنا طويلا

لا يستجيب لنزوة عابرة فينخزل ٠٠ ـ وكانت فينوس تحرك يدها بدلال وتومىء اليه بالغصن ٠٠ كان نهداها يترجرجان كغيمتين ثلجيتين تعومان فى بركة رائعة ٠٠ وجسدها غضا يضطرم شبقا وعيناها ذابلتين يتسلل منهما بريق اخاذ يدعوه بالحاح لعناق قاتل ٠٠ وهوم رأسه ببطء وظل حزين لابتسامة حيرى يلتصق على شفتيه المرتعشتين ٠٠ ثم ادار وجهه بقوة وصراخ عواطفه يكاد يصك مسامعه ٠٠ ـ ما اتاحه لك القدر وظللت تتحرق اليه بعناد لا تعبث به كمجنون لا يعقل ما يفعل ٠٠ ـ ورفع اليها عينيه المتوقدتين وراح يشارك عزف نظراتها بلحن رائع وردد :

ـ لست انت اول صدفة يضعها القدر امامى واتعافى عنها ٠٠٠ لقد اضعت فرصا لو احسنت فهمها وعرفت كيف اطبق عليها لما استحلت الى حطام عابس ٠٠

ومع ان اللقاء العابر السابق لم يمكنها من ان تلم بغير اجزاء متناثرة من حياته الا انها استطاعت ان تلمس بعض الشيء عمق الالام التى تتكأكأ عليه ٠٠ فحاولت ان تشيع فى حركاتها وكلماتها حنانا دافئا خمنت انه يفتقده فينسيه اطيافه السود :

ـ احيانا لا تكون الصدفة التى يسوقها لنا القدر واضحة بحيث نستطيع ان نميز معالمها ٠٠ وحين ندرك جزءا منها ، وبعد ان تضيع ، نشعر بالخيبة تستحوذ علينا ٠٠

وامتدت يده بعصبية الى علبة السكاير ودس واحدة بين شفتيه

وراح يعب دخانها بظمأ من تجرع ماء بعد عطش مرير ، وغمغم:
ـ الصدف . كما قلت، وميض خلب ، قد تحدث مرة وقد لا تحدث .. والذكي هو الذى يستشعرها فينقض عليها ، لا ان يقف امامها مبهوتا لا يدرى ما يصنع ولا يدرك ان ما حدث صدفة الا بعد ان تتسرب في الرمال المحرقة ..

ووجدت ان مثل هذا الحديث قد يفضى الى سهوم قاتل من حيث ارادت ابعاد مشاعر الضجر والكآبة ورددت :

ـ هل تقرأ كثيرا ؟ ..

وانفرز سفود فيه ، وادار رأسه باتجاه الكتب وجعلت عيناه تحملقان فيها برعب .. كانت اشداقها ما تزال تقذف فى وجهه لعنتها الابدية .. وقال بأصرار دون ان يحول نظره عنها :

ـ وهل اضاعنى شيء غيرها ؟ .. لقد ظلت تعبث بى وتضعنى مرة أمام مثل تلوكها ثعالب لا شكل لها ، واخرى وسط واقع يتفجر دما فى كل لحظة تمر حتى امسيت اشبه بخرافة تفزع من يقترب منها ! ..

وصدرت بالرغم منها ضحكة ناعمة عذبة وهمست :

ـ لعل الاوهام التى تصورها لك ، كتبك هذه ، ابعدتك عن الحياة الحقيقية ! ..

ـ اوهام .. اوهام فقط .. لم لا تختار اللفظة المناسبة وتقول : الاكاذيب !! .. حياتك لا اكثر من اكذوبة تضيع معها اكاذيب الحياة الاخرى .. مرة فى المثل التى تلوكها ثعالب لا شكل لها.. واخرى فى المبادىء التى يتقيئها بعض المغامرين.. وثالثة فى النساء اللواتى يلحن كالوهم فى ليالى السهاد الباردة .. وعاشرة فى الخلود الاجوف حين يبلغ بك العجز اقصاه ... ثم ، وانت فى لجة الدوامة المرعبة تسنح لك فرصة فتلقى نظرة خاطفة الى داخلك.. ويا هول ما تجد.. لا شىء .. ما كان يضج فيك لا اكثر من صخب اجوف حجب عنك الزيف الذى تتخبط فيه .. لقد شخت ! .. ـ

ولذعت نار السيكارة سبابته ، فادار رأسه اليها .. كانت ما تزال تعزف بعينها لحنا خافتا يضج بالرغبة ،وتلاعب على ثغرها الشفقى بسمة ثملة وهمست :

ـ كأسك فارغة ! ..

وتعالى الزئير يزمجر فى اعماقه .. ـ .. الكتب اللعينة هى

وحدها التى تحاول ان تبقيك اسير قيودها ٠٠ الاوهام التى ظللت تتخبط فيها تستقتل فى ان تجعلك حجرا اصم امام جسد يتوقد هوى ويتفجر رغبة ٠٠ ــ ٠٠ وكان الزئير يتعالى والمشاعر تحترب فى اعماقه كحيوانات ضارية ٠٠ ــ فرصة اتاحها لك القدر رغم رعونتك فلا تعبث بها ــ ٠٠ وانتفض من مقعده وقام ليقعد الى جانبها ٠٠ جرأة لا يظن انه كان يمتلكها ٠٠ ولم تبد ممانعة ، فقد كانت تحس ان اية حركة تصدر منها ، حتى وان كانت بوحى من الغريزة قد تجعل من الكائن الذى شاءت الصدف ان يلج حياتها ، فى حالة تخشب قاتلة ٠٠ وبيد مرتعشة رفع الزجاجة وصب فى الكأس شيئا من الخمرة ثم قربها من فمها والتوسل الذليل يلوب فى عينيه فى ان تشاركه السعادة التى بدأ يحس انها تتمطى فيه ٠٠٠ ولكنها تمتمت بدلال :

ــ ولكنى لم اذقها ! ٠٠

ــ جربيها ٠٠ ان مذاقها حلو ٠٠ لقد حدث شيء خارق فى حياتى ٠٠ وليس من المعقول ان احتفل به بمفردى ٠٠ دعينا نقيم مهرجانا ، انا وانت ، لهذه اللحظة الفريدة ٠٠ سنوات الحرمان والجدب والدماء ولت كضباب الغبش ٠٠ لقد وجدنا معا فى لحظة خاطفة فدعينا نستغلها الى اقصى ما تسمح به ٠٠ ان شيئا ما احسه يولد فى ، طريا ، عذبا ، رائعا ، كنجمة تحاول بعناد

ان تجدلها موضعا بين ملايين النجوم لترسل منه نورها الذى هو رمز وجودها ٠٠ ما حدث صدفة خارقة لن تتكرر ٠٠

ولامست كفها الكأس بحذر وتجرعت قليلا من الخمرة ٠٠ لم تكن حادة ، ولكنها شعرت بحرقة فى حلقها ، وابتسمت بدلال وهى تلوك حبة العنب التى دسها فى فمها ٠٠ كان ينظر اليها بخبل ينمو فيه ويتشعب ٠٠ كانت تلوك مع حبة العنب حياته كلها ٠٠ اعوام الجدب والسأم والضجر ٠٠٠ ـ امضغيها جيدا المأساة التى احياها حتى نهايتها الدامية ٠٠ المجزرة التى تسيل فيها الدماء صخابة ٠٠ امضغيها ولا تبقى شيئا ٠٠ المثل التى تلوكها ثعالب لا شكل لها ٠٠ المبادىء التى تتقمصها وحوش كواسر ٠٠ امضغيها اعوام الجدب واتفليها كالنفاية التى تتبقى من حبة العنب ٠٠ ـ لم يكن يرى امامه غير ما يسيل منها من شبق طفولى محرق ٠٠و كانت الزمجرة تتعالى فيه ٠٠ كان يحس انه يحترق ٠٠ فأغمض عينيه وضغط بشفتيه الداميتين شفتيها المتحفزتين واعتصرها بساعديه ٠٠ زئير الحرمان كان يجعله ينتفض بعنف ٠٠ كان يمتص شفتها السفلى وشفتها العليا ولسانها كمحموم يبلغ به اليأس اقصاه فيفقد السيطرة على حواسه كلها ٠٠ وغمغم:

ـ فى اية بقعة من الارض كنت حين ادميت قدمى بحثا عن انثى تخمد فى السعير الذى كان يجعلنى اتلوى ٠٠

وكان قد ازاح رأسه عنها وشىء ما يلمع فى عينيه ٠٠ كانت نفسه تنث طلا يورث الحزن ٠٠ كان هادئا والزئير يتلاشى والدوى يتطامن ٠٠ كان حزينا ٠٠وكانت تنظر اليه بارتخاء ٠٠

كان غير قادر على الحركة ، وكانت تجهد فى ان تلجم غريزة مشبوبة ٠٠ كان يضغط على صدغه باصبعيه ، وكانت تسوى شعرها براحتها ٠٠ كان مسحوقا لا يدرى ما يصنع ٠٠ وكانت حائرة وتستشعر انها اضحت زائدة عن الحاجة ٠ ٠وتمتمت :

ـ لم تحدثنى ٠٠ هل بحثت عنى طويلا ٠٠

وتجسدت امامه مشاعر اليأس والخيبة التى ظلت تصليه بشواظ سخريتها وتهزأ منه بفظاظة طوال تطوافه فى البحث عنها ٠٠ وكانت نظراته مسمرة فى قطتين تلعبان بمرح يضمهما اطار انيق معلق على الحائط امامه ٠٠ وكانت اصابع يدها تعبث بشعر رأسه الرمادى بحنان ٠ ٠كانت القطتان تلعبان ببراءة صافية ٠٠ ٠٠ وكانت تصطرع فى كيانه حيوانات مفترسة ٠ ٠واستدارت احدى القطتين وراحت تحملق فيه بذعر ٠٠ وحاولت ان تثب من الاطار وتغرز فى وجهه مخالبها ٠٠ وكانت تجهد فى ان تنتشل هذه اللحظة من الخيبة التى بدأت تطل من ناحية ما ٠٠ ودفن وجهه فى راحتيه وتمتمت :

ـ بأى شيء تفكر ؟ ٠٠

دلك عينيه بأصبعه ثم ازاحها عنهما وهمس :

ـ لا شيء ! ..

وابتسمت قائلة :

ـ ولكنك لم تجبنى بعد عما سألت ..

رفع اليها عينيه القلقتين ببطء .. كانت الرغبة تنوس فى داخله .. كان سعيرها يستحيل تدريجيا الى دفء لذيذ .. وكان الحيوان الجاثم فيه يحاول ان يجعل زمجرته كاسحة تجتث مشاعر التردد التى كانت تحوم حوله .. وكانت نظراته تتماوج كلهيب احمر .. واصابعها تداعب اذنه ورقبته ، فقرب فمه منها واخذ يمرغ شفتيه فى ذراعها العارية ثم زحف بهما الى رقبتها والصقهما عليها وغمغم :

ـ اجل .. بحثت عنك طويلا .. طويلا جدا .. اذا كان ذلك يرضيك .. لقد ظللت ارود المكان الذى وجدتك فيه لاول مرة طوال شهر كامل .. كنت اتعمد ان اكن هناك فى نفس اللحظة التى صادفتك فيها .. ، ثم رحت اقدم فى الموعد او اؤخر واقصد كل الاماكن التى كان يخيل الى انك قد تأتين منها ..

كنت اقف الساعات الطوال وانا اتلفت يمينا وشمالا انتظر مجهولا لا يأتى ٠٠ ومع اننى كنت ادرك تماما ان من الخبل البحث عن فراشة لمعت لحظة في وهج الشمس ثم اختفت فى غابة لفاء ٠٠ الا اننى كنت اخمد مثل هذه الاصداء المؤذية لازاول البحث من جديد فى اليوم التالى ٠٠ لقد بحثت عنك بجنون ٠٠

لم تبتسم بالرغم من انها كانت تحس بالسعادة تغنى فيها ٠٠ وكانت اصابعها ما تزال تعبث بأذنه وشعره الرمادى ٠٠ وكان ما يزال يلصق شفتيه فى رقبتها ٠٠ كانت الرغبة تتأكلها ٠٠ وكانت الزمجرة تخفت فيه وتستحيل الى اصداء خافتة ٠٠ كانت فينوس تسترجع الغصن وتدسه بين نهديها ، والقطة تعاود اللعب المرح مع شقيقتها ٠ ٠وهمست :

ـ لعل الندم الذى استحوذ عليك قد ضاعف من كآبتك التى ما زلت المحها فى قسماتك بالرغم من انك تهيأت للاحتفال بهذه اللحظة الى اقصى حدودها ٠٠

وامتدت يده الى الكأس وادناها من فمها ، ولكنها توسلت اليه الا يضطرها الى ذلك ، فما تحسه من دوار يكاد يفقدها وعيها ٠٠
فابتسم وعب شيئا من الخمرة ثم قبلها من عينها وردد :
ـ انا والندم ، لو تعرفين ، ظلان متلازمان لا يفترق احدهما عن

الاخر .. اذا تجرأت واقدمت على شيء راح يحملق في مؤنبا ، واذا ترددت فلم استغل ما يتيحه لى القدر ، احس بانيابه تنغرز فى ..

وحاولت ان تكتم قهقة انطلقت بالرغم منها خافتة وقالت :
ـ وحين لم تعثر على بعد ذلك البحث الطويل ، ماذا رحت تفعل ؟ ..

ـ لا شيء .. اضفت خيبة جديدة الى الالاف التى منيت بها .. لقد قلت لك انه بالرغم من اننى كنت ادرك تماما ان ما توجده الصدفة المحضة ويضيع لا يعثر عليه بالبحث والتنقيب مهما كان الجهد ومهما طال الزمن .. الا اننى كنت اخمد مثل هذه الحقيقة وامضى فى البحث عنك ..

وتناولت كفه بين يديها وادنتها برفق الى فمها .. غناء عذب مشوب بمقاطع حزينة بدأت جوانحه تردده بخفوت .. حياة طرية تولد فيه .. ما ظل يتطلع اليه بيأس ليتحقق فى لحظة خالدة .. انامل رقيقة تحنو عليه وتهدهد العذاب الذى يدوم فيه .. شفتان مكتنزتان هوى ورغبة ترددان على مسامعه لحنا فريد الايقاع .. عينان خمريتان تعزفان لحنا صافيا لا مثيل له .. كان هادئا .. وكانت تحس انها امام كائن لا مثيل له ..

وهمست :

ـ ما توجده الصدفة المحضة ويضيع لا يعثر عليه بالبحث ‥ شيء جميل ‥ وهل كنت تدرك مثل هذه الحقيقة قبل الان ؟ ‥

ـ ربما كنت احسها احساسا مبهما‥ ولكن التجربة جسدتها لى ‥

ـ فانا اذن قد افدتك معرفة ‥ بعد كل شيء ‥

ـ ولكنى ما كدت اتركك تمضين دون ان اطبق عليك بذراعى هاتين ‥ حتى بدأت اوقن ان مشاعر اليأس التى كانت توحى الى بالحاح من اننى انسان خائب لم تكن مشاعر كاذبة ‥ وانا لا اكثر من كيان لا وجود له ويرفضه كل شيء ‥

وتناولت حبتا عنب ودست احداهما فى فمه وكزت على الثانية باسنانها وقالت مستفهمة :

ـ هل تعيش بمفردك ؟
ـ كما ترين ‥
ـ ولكنى ارى مكانا لا ينقصه سوى شيء واحد ‥
ـ اكتمل بك ‥

وقهقهت بانطلاق عذب ورددت :

ـ كم هن عدد الفتيات اللواتى ولجن حياتك ؟
ـ ولا واحدة ..
ـ الم تتعرف على فتاة قبلى ؟

ورفع اليها عينيه القلقتين.. كانت مقاطع الحزن التى تشوب الغناء العذب الذى ترده جوانحه تزداد وضوحا وحدة .. كانت القطة قد تخلت عن اللعب وراحت تنظر اليه برثاء .. وكانت فينوس قد اسبلت جفنيها لتجنب نفسها رؤية الفجيعة التى كانت تحوم فى جو الغرفة .. كان يحسها تنمو فيه .. كانت الاصداء المخوفة التى ظل يخنقها تجد متنفسا تبعث منه هسيسها فتفرقه فى حيرة مرعبة .. كان لا يصدق ان من يناغيه ويستاف عبير الانثى منها ويهدهد سنى الجدب واليأس كائن حى له وجود حقيقى وليس شبحا يصوره الوهم فى ليل السأم السرمدى ... حتى اذا نفض رأسه لم يجد غير شبحه والعدم .. كانت مقاطع الحزن تكاد تستحوذ على الصدى الباهت للغناء الذى حاولت جوانحه ان تنشده .. كان حزينا لا يجد ما يقوله ولا يدرى اى شيء يفعل .. لقد ظل يتوسل الى القدر ان يهبه فتاة تحيا فيه كبعضه ويعزف لها انغام حب لم يسمعها بشر من قبل .. وها ان القدر يستجيب ويمنحك ما كنت تتحرق لان تجعل منها ـ فينوس ـ

وتقيم لهـا مهرجان عرس لا ينتهى ٠٠ ولكنك تتخشب امامهـا ولا تجد ما تقول لهـا ٠٠ ما كان يتأجج فيك ويعذبك لم يكن غـير شـبق رخيص اطفأته ببضع قبلات ٠٠ اين حوارك الـذى كنت تديره بين شخصين متحابين فتنزلق عبارات الغزل من فميهما انزلاق الضوء من القمر الوليد ٠٠ هل شاخ فلم تعد تتقبله الحياة الا كما تتقبل متفرجا ينظر اليها من بعيد حتى اذا حاول ان يكون فى وسطها او يشارك المرح الطفولى الذى يتعالى من ابنائها ابعدته بلطف لتقول لـه ان دورك فى اللعب قد فات ! ٠٠

واشعل لفافة تبـغ استلها بسهوم مطبـق من العلبـة وامتص نفسا عميقا وقال بتوسل :

ـ لم لم يلق بك القدر الى قبل الان ؟ ٠٠

وحاولت ان تأخذ رأسه بـين يديها فأزاحه عنهما ٠٠ كانـت الاصداء المكبوتة يتعالى رنينها فتملأ وجوده ٠٠ وكان الذهـول يستحوذ على حواسه كلها٠٠ وكانت تبذل جهدا كبيرا فى السيطرة على ما يمور فيها من انفعالات متباينة ابرزها الخيبة واليأس ٠٠ وكانت المشاعر المتناقضة تحترب فيه بعناد ٠٠ كانت تتشبث بما كان يتسرب من بين اصابعها كالضباب وكان يجهد ان يجعل الزئير يستحوذ على هذه الاصداء القاتلة ٠٠ وكانت توحى الى نفسها ان

ما تحسه مجرد وهم وان من اقتحم حياتها ليرسم فيها علامات ، كائن حقيقي وليس شبحا •• وهمست بحنان :

ـ ولكنك قلت ان الحياة لحظات متعاقبة •• وانها قد تتجمع فى لحظة واحدة تمتد الى مالا نهاية ، فدعنا ، كما تقول ، نقيم مهرجانا نغرق فيه ونستغل هذه اللحظة الى اخر جزيئة فيها ••

كان قد فقد احساسه بما هو موجود حوله •• وكانت نظراته مسمرة فى التمثال العارى لفينوس •• كانت ما تزال تسبل جفنيها ، وكانت القطة تموء •• كانت الاصداء الحزينة التى تتناهى اليه من واد بعيد تتضخم ويتعالى دويها •• لم يكن يرى شيئا •• النغم المشوب بمقاطع حزينة يستحيل الى نواح كئيب •• لم يكن يعى ما اذا كان صامتا لا ينبس ام ان شفتيه ترددان بقسوة بالغة هذيان يشبه ما يصدر من طعين بسكين مسمومة ••

ـ ولكنى لا استطيع •• لقد افسدتنى الاوهام فلم اعد احسن الكذب ، او ادس فى ثنايا ثيابى فخا اصطاد به من ترميه الحياة امامى •• انا انسان هالك •• لا وجود له •• فما كنت احسه قبل ان اطفىء الرغبة التى كانت تستعر فى قد تلاشى الان •• لا ادرى ما سأكون عليه فى الغد •• ولكنى الان اشعر اننى لم اخلق لكى امارس الحياة الحقيقية دائما لكى اصوغها كما اتمثلها وكما

احب ان تكون فى الخيال فقط ٠٠ انا سجين ٠٠ سجين ٠٠٠ هل تفهمين ؟ ٠٠ سجين قيود لا اقوى عليها ٠٠ لذتى الكبرى تتحقق فى تعبير جميل اجده فى كتاب وليس فى ان اعاشر كائنا حيا ٠٠ الكائنات الحية التى تتصارع بين دفتى كتاب هى التى تعنينى وتثير انتباهى وليس الكائنات الحية التى اجدها امامى ٠٠ لقد بحثت عنك طويلا لاننى كنت اسير فكرة رهيبة تتغلغل فى دمائى وتستحوذ على حواسى كلها ٠٠ كان الموت ينمو فى كقدر محتوم ٠٠ كان كل شىء فى يتداعى وينهار ، وحين وضعك القدر امامى واضعتك رحت ابحث عنك بجنون ٠٠ لم يلق بك القدر اعتباطا ٠٠ لكى ازحزح عنى مشاعر الموت التى كانت تتأكلنى برعب فلا مفر من ايجاد بديل ٠٠ وكنت اوهم نفسى طوال المدة التى كنت ابحث فيها عنك من اننى سأجعل منك الها الوذ به من الرعب الذى كنت احياه ٠٠ ومع ذلك فقد شعرت بانتفاضة ضخمة حين قذفتك الصدفة المجنونة ثانية امامى ٠٠ وحين رحت اطبق عليها كنت اتمثل المهزلة التى ساحاول تجربتها معك ٠ ٠ان ما كان يحتدم فى لم يكن مبعثه الحب ، وانما الشهوة ٠٠ وانا لا اريد ان اكون سجين قيدين ٠ ٠قيد واحد يكفى ٠٠ لقد بحثت عن الحب طويلا ٠٠ الحب الذى يجعل من الكائن الحى روحا تهيم فى اللا محدود ٠٠ ولكن مثل هذا الحب لا يوجد الا فى الكتب ٠٠ أما على الارض ، فهو مجرد لفظ نستخدمه فى تزويق الشبق الجنسى ٠٠ انا انسان هالك ٠٠ لا وجود له ٠٠ اننى ادرك

واحس عمق الجرح الذى تستشعرين به والخيبة التى منيت بها لاستسلامك لرجل ربما يشبه الى حد كبير البطل الاسطورى الذى يداعب كل فتاة ٠٠ ولكننى لا املك سوى ان اقول ذلك ٠٠ فانا لا استطيع ان ازور احاسيس كاذبة او ارتدى الاقنعة التى يرتديها انسان اليوم ٠ ٠انا انسان مهزوم لست من هذا الجيل ٠٠ الواقع الذى احياه ترفضه كل حجيرة فى ٠٠ الجيل الذى ابحث عنه ينام مطمئنا فى الكتب ٠٠ عشرون عاما وانا اصارع الاوهام واتغذاها واعيشها ٠٠ اما الحياة ٠٠ فقد لفظتنى منذ امد بعيد ٠٠٠ الحياة تهب نفسها لمن يتقبلها بكل مافيها من سعادة لا تحد ، وشقاء لا يطاق ٠٠ اما نحن فلا اكثر من نفايات ترمينا بعيدا لاننا نحاول ان ندس فى قانونها الصارم بنودا لا وجود لها ٠٠

كانت تنظر اليه واشياء كثيرة تتحطم فيها ٠٠ وكان يحملق فى الكتب الملقاة على الطاولة الجانبية وابتسامة راضية ترقص فى ثناياها ٠ ٠كانت القطة تموء بكآبة ٠ ٠وكانت اوراق الغصن الذى تحمله فينوس تتساقط ورقة ورقة ٠٠ كان لا يعى ما اذا كان صامتا لا ينبس ام ان شفتيه ترددان هذيان من يتجرع سما قاتلا ٠٠ وكانت ترفض ان تصدق ان شيئا يشبه العويل ينبعث من شخص كانت تظنه الى قبل لحظات مثالا للرقة والخجل والعاطفة

وتوقف مسحوقا تنهار فى داخله عوالم حية ظل يؤملها طوال

سنوات الرعب بلحظة رائعة كالتى يغتالها الان بجنون وحشى ٠٠ ولم يقو على مواجهة نظراتها المحملة بتأنيب فظيع احسه يحتدم فيه كبركان يكاد ينفجر ٠٠ فاطفأ السيكارة التى لم يمتص منها غير نفس واحد ثم قام باضطراب وغادر الحجرة ٠٠ ووقف بالقرب من الدرج وقال بصوت مضطرب وهو يرتقى الدرج بخطى مشلولة :

ـ حتى الاعتذار لا ينفع فى مثل هذه الحالة ٠٠ وكل ما آمله هو ان تعتبرى ان من حاول التصدى لحياتك معتوه اراد ان يعبث بكيان رقيق جميل فالقيته بعيدا ٠

وكان قد بلغ منتصف الدرج حين تناهى اليه صوتها حزينا مقهورا ينمو فى طياته عذاب لا حد لفظاعته ٠٠

ـ كنت اعزى نفسى به لو كنت كذلك ، ولكنك لست معتوها ٠٠

ـ ثقى اننى معتوه ٠٠ من يرفض النظر الى عينين كعينيك ٠٠ وارتشاف القبل من ثغر كثغرك ، والتمتع بجسد يحتدم رغبة لهو اكثر من معتوه ٠٠

ـ ولكنك لست معتوها ٠٠

وتردد لحظة ليغالب دموعا تغلى فى عينيه وشهق قائـلا :

ـ انا لم اسأل عنك بعد ، او المكان الذى تسكنين فيه٠٠ واعاهدك اننى منذ الغد سأعاود البحث عنك من جديد ٠٠ سأذهب فى كل يوم الى المكان الذى التقيتك فيه لاول مرة ، واتلفت يمنة ويسرة علنى المحك قادمة من بعيد ٠ ٠ما ابحث عنه هو خيالك ٠٠ امـا كونك كائنا حيا فلم تخلقى لتكونى لى ٠٠ ارجو ان اكون قـد اتحت لك فرصة كافية تتركينى فيها وحدى لاواجه الصراع الذى انا فى اتم الاستعداد لمواجهته ٠٠٠

وكان هسيس قدميها يتناهى اليه كضربات مطرقة تهوى عـلى رأسك بعنف وكاد يصرخ مزمجرا ان تقف لحظـة اخرى حـين اصطفق الباب بقوة جعلته ينتفض مذعورا ٠٠٠

ظل برهة مسمرا فى وسط الدرج لا يتحرك كتمثـال نحـت ليكون رمزا للخيبة ، ثـم عاد ليطأ الدرجات واحدة ٠٠ واحـدة ووقف فى نهايته مذهولا يحدق فى الكتب المتناثرة هنا وهناك ٠٠ وببـطء ، وبهدوء عجيب ٠٠ راح يخطو اليها ثـم جعل يمزقها كتـابا كتـابا ٠٠٠

للمؤلــف

- نهاية حب ـ رواية
- أنــاهيد ـ رواية
- همس الايام ـ مجموعة قصص
- بقايا ضباب ـ مجموعة قصص
- شجن طائر ـ مجموعة قصص
- اعيــاد ـ مجموعة قصص
- فى الادب والثورة ـ مجموعة مقالات

الفهرست

الكوخ والجرذان والمطر ٢١

العشب الاحمر ٥

الهمس المذعور ٣١

كتـــاب ٥١

النشيـج المبحـوح ٦١

الرغبة المغلولة ٨١

حكـــاية ٩٣

صيـــد ١١١

ضيـــاع ١٢٧

رقم الايداع فى المكتبة الوطنية ببغداد ٢٠٥ ـ ٧١
مطبعة حداد ـ البصرة ـ العراق ٢٤ـ ١٠٠٠ ـ فى ١٥ـ٥ ١٩٧١

صورة الغلاف والرسوم
الداخلية والخطوط بريشة
الفنان ـ ضياء العزاوى ـ

رقم الايداع فى المكتبة
الوطنية ببغداد ٢٠٥ /٧١

طبع فى مطبعة حداد
البصرة ـ العراق

